مسابقة iRead للقصة القصيرة

غموض في مصر القديمة

مجموعة كتّاب

تقديم

تنضم مُبادرة «آي ريد» بمسابقتها في القصة القصيرة إلى مهرجان القاهرة السينمائي في دَورته الحادية والأربعين، لتقدم أعمالَ مجموعة من المُبدعين الشباب، يجمع بينها خيطٌ سِحري وأجواء تليق بأجواء تلاقي السينما بالأدب، والتي تظهر في عُنوان المسابقة: «غموض في مصر القديمة».

ما تحمله الصفحاتُ القادمة هو نِتاج عملٍ شاقٍّ مُمتع بعد أن وصل عدد المشاركين في المسابقة إلى ٢٥٠٠ مُشارِك، قدموا نُصوصًا احتاجت إلى تصفيات مُتتالية إلى أن وصل منها خمسون نصًّا إلى المرحلة الأخيرة، وكانت هذه المرحلة الأصعب بالتأكيد. المُتعة الحقيقية التي أعلنتها لجنة التحكيم كانت في وجود عشرات من النصوص الجيدة التي تُقدِّم مُستوى فنيًّا راقيًا، وتُنبئ بوجود مواهب حقيقية. والحقيقة التي لا بد أن نفخر بها أن مصر تزخر بمئات الشباب الذين يُحبون الثقافةَ والأدبَ

وينتظرون أيَّ نافذة يُطلون منها إلى عالَم الكتابة والنشر ليبدءوا طريقهم الطويل الشاق في محافل القصة والرواية.

إن مسابقة «آي ريد» - «غموض في مصر القديمة»؛ هي مجرد محاولة صادقة ومُخلصة لتكون خطوة أولى لهؤلاء الشباب الذين يتحسسون خُطواتهم الأولى نحو المستقبل في الأدب، ومُحاولة للقائمين عليها للربط بين أنواع الفنون المختلفة في حدث واحد كبير.. يلتقي فيه أهلُ القصة والرواية بأصحاب الدراما والسينما.. تحت سماء القاهرة الساحرة دائمًا. والمليئة بكثير من «غموض مصر القديمة».

رُوحٌ تائهة

أحمد جاد الكريم

شردت إحدى الأغنام بعيدًا، تبعها الراعي حتى سقطت في مُنحدر رملي، فتحة صغيرة تكاد تكفي المعزة التي هوث من خلالها، نظر الراعي للخلف ليتأكد أن باقي الأغنام لا تزال تسير في طريقها، هشَّ بعصاه ناحيتها، كأنه يريد أن يُفيق من حيرته، أين ذهبت المعزة؟!

قرَّب رأسه ناحية الحفرة، رأى ظلامًا، أسود حالكًا، لم يُحدد شيئا، ولكنَّ هناك صوتًا في الأسفل كأنَّ المعزة تستنجد به، أو أنَّ أحدًا ما يعذبها، يخفت أنينها ثم يعاود عاليًا إلى أن خمَد نهائيًّا، في هذه اللحظة كان قد قرَّب أذنه ناحية الفتحة، أحسَّ بأن شيئًا ما يجذبه للأسفل، غرس عصاه في الرمل، ثبَّت بها نفسه، ثم سحب قامته ورجع عائدًا يجري ناحية الأغنام التي بَعدت عنه.

* * *

المومياء مُمددة في المُتحف عليها آثار تعذيب، في الوجه شيء غريب، غير طبيعي، كأن هذا الشخص قبل أن يموت تعرض لعذاب شديد، الفم مفتوح، الجثة بعد فحصها تبين أن صاحبها لم يبلغ الثلاثين، الفزع بادٍ على الوجه، الأسنان كاملة، الرأس يقول إنها كانت تحمل كثيرًا من الأمنيات، لكن الموت أسرع إلى الروح فقطفها وهي شابة، مومياء بلا اسم ولا هوية تدل عليها، رغم كون الجثة قريبة الملامح من نبلاء العصر القديم، عبرتْ آلاف السنين لتصل إلى مُتحف أنيق يزوره ناسٌ يتحدثون بلغات مختلفة، رجال ونساء بتنورات قصيرة، وبناطيل، وشورتات قصيرة ساخنة، ينظرون ويتعجبون، يبحثون في اللوحات الإرشادية، يسألون المرشدين دون جدوى، رجل عبرَ الدهور ووصل إلى تلك البقعة دون اسم ولا أثر غير هذا الهيكل العظمي المثير.

* * *

في الليل يحكي الراعي لصديقه عن الحفرة التي سقطت فيها المعزة، عن الشيء الذي جذبه، عن الظلام الذي شق ظلامًا وكاد أن يشق رأسه ويسحبها للأسفل. يقرر الصديق اصطحاب الراعي ويذهبان إلى هناك، كان الليل قد حلَّ على القرية الجنوبية، صوت الصراصير ينبعث من بين الصخور، باعثا في المكان رهبة، القمرُ في السماء مكتملٌ، تخفَّيا كأنهما ذاهبان لمهمة خطيرة، مدَّ الصديق عصاه ناحية الفتحة، غرسها لأسفل، مال بجسده أكثر، أخذ في تطويح العصاة علَّها تصطدم بشيء، لكنها كانت تتحرك بحرية دون عائق، من جوالٍ أخرج فأسين، أخذ الصديقان يُوسعان الفتحة، تكسرت الصخور بلا مشقة منهما، الفتحة أصبحت تَسَعُ رجلا، أشعل الرَّاعي عود ثقاب، يده ترتعش، ثبتها ومال ناحية الفتحة، انكسرت حدة الظلام، لكنَّ شيئا لم يَبنْ.

* * *

شاب بشعر أشقر بجواره فتاة ترتدي شورتا قصيرًا، مبهورَيْن أمام المومياء الموضوعة في الزجاج، ما قصة هذه المومياء؟ يؤكد المرشد السياحي أن هذه المومياء بلا هوية، وأن وراءها غموضًا لم يُكتشف حتى الآن، تلفُّ الحيرة الشاب والفتاة، يسألان المرشد عن السر وراء عبور هذه المومياء آلاف السنين بلا اسم، يقول المرشد: إنها وُجدت في مقبرة كبيرة تضم عشرات النعوش لمومياوات ملكية، كلها معروفة، كنز حقيقي.

كل نعش معه تعريف لصاحب المومياء عدا تلك المومياء المجهولة، ما الذي جعلها تنضم إلى هذه السلسلة من المومياوات المَلكية، لكن لسببٍ ما لم يوضع بجوارها ما يكشف عن هويتها، تسأل الفتاة عن سر التعذيب في وجه المومياء، تغمض عينيها للحظة، تتخيل الرعب الذي عاشه هذا الرجل قبل موته فجعله يموت على هذه الحالة.

* * *

على هدى من مصباح الجاز يهبط الراعي وصديقه للأسفل، هناك دَرَجٌ متهدمٌ من خلاله وصلا للأسفل، فرك الراعي عينيه، حكَّ صديقه شعره، الذهول يطوقهما، كانت النعوش من حولهما متراصة، بدهشة سارا نحو إحداها، تعثر الراعي في شيءٍ صلبٍ، قرَّب المصباح، كانت المعزة، متصلبة، يابسة، وجهها عليه الفزع، فاغرة فاها، دقق أكثر، كأنها قد حُنِّطت، بعصاة حركها الصديق، تأكد من تيبسها، لم تصدر منها أي رائحة تعفن، ضغط الصديق العصاة في بطنها، كأنه يغرسها في حجر صلب، تركا دهشتهما لما حدث للمعزة واتجها ناحية النعوش، سمعا صوتًا يأتي من أحد النعوش، أنينًا مكتومًا، مثل الأنين الذي سمعه الراعي عند سقوط المعزة في الحفرة، قررا الخروج ثم العودة مرة أخرى مع واحد من لصوص الآثار، في طريقهما لم يتحدثا، كل منهما كان يفكر في الثراء القادم، كان الحلم ممزوجًا بالخوف، هناك أسرار في تلك المقبرة الملكية، المِعزة المُحنطة، الأنين المكتوم، الرعب

قادم..

* * *

لم يترك المرشد الشاب والفتاة في حيرتهما، حكى لهما كلَّ ما حدث منذ اكتشاف تلك المومياء اللغز، هناك علامات حِبال على قدمَي وذِراعي المومياء مما يكشف أنها أُوثقتْ بالحبال قبل موتها، قال العلماء الذين فحصوا المومياء: إن شعرها كان أشقر، وغالب المصريين شعرهم أسود، مما يؤكد أنه ربما تكونُ تلك الجثة لرجلٍ أجنبي، تبادل الشاب والفتاة نظرات أكثر حيرة، سألا المرشد عن الزمن الذي عاش فيه هذا الرجل، قال: إنه تقريبا منذ ثلاثة آلاف سنة، كان الشاب على علم بتاريخ مصر القديمة، من الممكن أن يكون ابن زعيم الحيثيين الذين كانوا في سوريا، هكذا خمَّنَ الشابُ، استنجدت بهم زوجة توت عنخ آمون عندما مات زوجها، أرادت أن تحافظ على المُلك فأرسلت لهذا الرجل الأجنبي، فجاء إلى مصر ثم تزوجها، لكنَّ

مؤامرة حِيكت، فقتل، هذا الرجل لا بُدَّ أنه عُذِّب أو خُنق أو دفن حيًّا جراء تطاوله على مُلك مصر، ولأنه لم يكن مَلكًا مصريًّا، أرادوا لهذا الدَّخيل ألا يعبر إلى الأبدية فتركوه مجهولا بلا أي شيء يخصه، حتى يهلك، وينتهي ذكره للأبد، قالت الفتاة: إن كان فعلا هو ذلك الشخص فقد لاقى عذابا مُرًّا قبل الموتِ.

* * *

أربعون نعشا ملكيًّا، برديات كثيرة، قِطعٌ من الكِتَّان، مومياوات بحالتها، لم تُمس من قبل، أقراط من الذهب، وحُلي، أدوات زينة، كل ذلك كان موجودًا في المقبرة الملكية، جاء مع الراعي وصديقه شخص آخر، خبيرٌ في الآثار، فرنسي الجنسية يجيد اللغة العربية، بعدما أخبره الراعي وصديقه بمحتويات المقبرة، اتفقوا على بيع هذه الآثار، يكون ذلك الفرنسي وسيطًا بينهم، وله نصيب، كشفا كل النعوش، وأخرجوا منها ما استطاعوا أن يحملوه، لكنهم توقفوا لعدة أشهر

أحيانًا بسبب خوفهم من الوشاية وأن تعرف الشرطة ما يفعلون، حتى الأموال التي حصلوا عليها دفنها كل في بيته، ولم يُخرجوا منها إلا القليل، بقي الأمر سرًّا بين الرجال الثلاثة، في كل مرة يهبطون للمقبرة، ويُخرجون شيئًا يبيعونه، تدق قلوبهم من الخوف من ذلك العالم الغريب الذي يدخلونه، كأنهم انفصلوا عن كونهم، وولجوا عالمًا مغايرًا، يقلبون النظر في كل ركن، ما عدا نعشًا واحدًا يحوي جثة عليها رعب العالم، وضعوا المعزة بجواره، تركوا كل ما يحيطهما، خافوا إن اقتربوا تصيبهم لعنة ما، لكن فضول الراعي لم يتوقف، يفكر في الوقت الذي يختلي فيه بنفسه، ماذا وراء ذلك النعش؟ ومَن حنَّط المعزة؟ مَن سرَّب إلى كيانها كل ذلك الرعب؟ يرتعد، ينام، وفي النوم تأتيه كوابيس مزعجة.

* * *

المرشد يرى احتمالا آخر لهذه المومياء. خيانة قام بها أحد النبلاء، طعنة وجهها في جنح الظلام

لملك أو أمير، تسلل لأحد مخادع الأميرات، وليلة عسل قضاها في حضنها ذاق فيها الحبَّ حتى سَكر؛ لينال مقابل كل قطرة عسل قنطارا من العذاب، ثم أُقصى من الحياة متجردًا من كل شيء، ذاهبا للنسيان، مفزوعًا بعد ما كانت البسمة لا تفارق شفتيه طيلة الليلة الهانئة.

تتساءل الفتاة الشقراء:

ـ هل سرى سُمٌّ قوي في جسده، جعله يتألم بشدة ثم تتقلص أطرافه، وجوارحه ثم يُلقى في الجحيم؟

يُفيق المرشد من تفكيره.

ـ فعلا اللغز مُحير، طيلة سنوات عديدة لم يتوقف العلماء عن البحث وراء سر هذه المومياء، يقول إن بعد فحص أمعاء الجثة تبيَّن أنها خالية تماما، مما يؤكد أن الرجل تقيَّأ كل ما في جوفه، وهذا يحدث غالبا لو كان قد تناول سُمًّا، هذا احتمال ليس بمستبعد.

إذن الرجل قُتل، وكان قتله شنيعًا، الموت ليس وحدَه العقاب، لكن الأهم هو الحرمان من الحياة الأخرى التي كان يؤمن بها المصريون القدماء، دنياهم هي الممر، المعبر نحو الخلود، حيث تسكن الأرواح وترتاح من كدِّها وتعبها في الدنيا، قدسوا الموت، واعتبروا الحياة رحلة تجهيز قصيرة، مَن يخطئه حظه ولا يمرَّ عبر جسر الموت للعالم الآخر فقد خسر الحياتين!

* * *

في الحلم يرى الراعي نفسه يجري بأقصى سرعة، خلفه المومياء المفزوعة، وأمامه المعزة، وقد وُهبت سرعة فهدٍ في قدميها، الراعي يلهث، يُقلب بصره في كل ناحية، يرى قطيع الأغنام متفرقًا في كل جهة، لاهثين أيضًا، الشرر يتطاير من عينَي المومياء، القدمان متصلبتان، لكنهما ينهبان الأرض، عندما مدت يدها لتمسك الراعي، استيقظ مرعوبًا، وجد نفسه في المقبرة، بجوار نعش الرجل المجهول

والمعزة، ما كان يتجنبه أصبح قريبًا منه، يكاد يمسه، رفع بصره فوجد المومياء تنظر إليه، أُغشي عليه، لم تكن هذه المرة حلمًا، كانت النظرة حقيقية، ركبه الفزع، ولم يتحمل، أفاق بعد لحظات، ليجد أن كتفه تؤلمه، هل ضربه الرجل في الحلم أم في الحقيقة؟ حرك يده فإذا هي تصطدم برِجل المعزة، جرح حافرها يده، مسح على وجهه، ثم تحسس ألم كتفه، كان الألم يشتد، عاد الأنين من جديد، تحول إلى همسٍ: أنقذني أيها الراعي. كانت العبارة تتردد في أذنه طيلة اليوم وهو مُمدد على فراشه في بيته، فوق الأرض التي تحوي بداخلها ثروته، تحويشة العمر التي سيتركها لأولاده من بعده، لم يهنأ بمليم طالما تطارده تلك الخيالات، وتزوره المومياء في نومه ويقظته، يئن من الألم، يريد أن يصرخ، يُغشى عليه، ويُفيق على صوت المومياء.

أنقذني أيها الراعي.

* * *

اكتشف الأثريون أن المومياء كانت ملفوفة في كتان، ولكنها مُزقت ربما من قِبل الراعي أو أحد مَن جلبهم للمقبرة، لكن المثير أن طريقة تحنيطه لم تكن على الطريقة المصرية، مختلفة تمامًا، التحنيط تكريم للميت، وتهيئة لانتقال آمن للعالَم الآخر، لكن هذا الرجل أريد إهانته في دنياه، ليذوق من كأس أذاقه لآخرين، ربما كانَ رئيس شرطة عذب كثيرين، جلادًا وقع في يد المجلودين فانتقموا منه، أوثقوه، ثم سقوه السُمَّ، تتساءل الفتاة:

هل من الممكن أن يكون قد خُنق؟

المرشد يستبعد هذا الاحتمال بناء على تقارير الأثريين، فلا آثار لخنق، لكن الاحتمال الأكبر أنه قد دُفن حيًّا.

يقول المرشد:

ـ إنَّ أحد أبناء فرعون عظيم حاول قتل أبيه، لكن المحاولة باءت بالفشل، عُوقب الابن، بأي عذاب؟ بأي آلة؟ بأي طريقة جرى سحل ذلك الابن العاق

الخائن لأبيه؟ مات الابن، وربما يكون هو نفسه الرجل المجهول الرَّاقد في المتحف في زجاج خانق، يبحث عن هويته منذ آلاف السنين.

تسري قشعريرة في جَسَدَي الشاب والفتاة، يُحسانِ بروح المومياء تتجول في المكان، رعب ثلاثة آلاف عامٍ من حيرة الرجل تتمثل أمامهما الآن، وهما يغادران المُتحف.

* * *

يُكرر الرَّاعي الزيارة وحده للمقبرة، مجبرًا غير مخيرٍ، يسمع كلام المومياء، حتى المعزة تئن، وكأنها تريد أن تعرف مَن قتلها، وحنطها. يُقرر في لحظة أن يُبلغ هيئة الآثار عن المقبرة، سيتحمل السجن، لكن أن يحتمل تلك العذابات فمن المستحيل، سيموت ولن يتمتع بشيء.

في الصباح خرج الرَّاعي لهيئة الآثار في المدينة، أبلغ عن المقبرة. ظنوه في البداية مجنونًا، لكن ما عثروا عليه كان يبعث على الجنون، جاء علماء

الآثار؛ مصريون وأجانب، ما بيع كثير، وما بقي ليس بالقليل، والراعي يغرف ويبيع، كل ما عُثر عليه لم يثرِ الريبة سوى هذا الرجل المجهول الذي كان الراعي أوَّل من رآه بعد معزته. هتكا السر، ولم يقدرا على فك الطلسم، فأصابتهما اللعنة، كل نعش بجواره بردية تحكي تاريخها، بطاقة هويتها، لكن أين الأوراق الثبوتية لهذه المومياء اللغز؟!

لم يرجع الراعي إلى بيته، بل مَثَل أيامًا أمامَ مُحققين، وُعدَ إنْ تعاونَ معهم فسينال عفوًا عمَّا اقترف، لكنه ظل في قسم الشرطة لشهور، عندما أُعتق لم يعد إلى منزله، جلس بجوار المقبرة، بالليل تأتيه خيالات وأحلام، يقسم أن ما يراه حقيقة، المومياء تحدثه، تستنجد به: أنقذني أيها الراعي!

نُقل ما بقي من محتويات المقبرة من الجنوب للعاصمة، ومن بينها مومياء الرجل المجهول، ثُركت المعزة، تسلل الراعي للمقبرة، نام بجوارها، بالليل ينهض مفزوعًا، يراها فاغرة فاها، كأنَّ روح المومياء

قد سكنتها للأبد، ارتاح من صوت المومياء حينًا، لكن الصوت عاد خارجًا من فم المعزة: أنقذني أيها الراعي.

حاول خنقها لكنها كانت يابسة، جرَّب غرس أصابعه في بطنها، تعارك معها، بأسنانه حاول يائسًا قضم جسدها المتصلب، تكسرتْ أسنانه سِنة سِنة، بَرَكَ فوقها، وذهب في نوم عميق، مهدودَ الجسد، في الصباح عثروا عليه بجوارها متيبسًا، عليه علامات الفزع والرعب التي كانت على وجه المومياء المجهولة!

قبضة الإله

محمود عاشور عبد الوهاب عياد

جلس «تحوت» أمام جدته متسع العينين منتظرًا أن تكمل حكايتها عن الرب. كان جميع من في القرية يتحاشون الحديث عنه، لا أحد يذكره بخير أو شر، وإذا سأل أحدهم يشيح بوجهه عنهما، عدا جدته، ربما لكِبر سنها لم تعد تخاف من الكلام عنه، وتحكي ما حدث منذ عقود. نظرت الجدة لحفيدها في حب وفكرت في سرها «هاهو، شاب كامل يحسب أنه قادر على تغيير العالم، مثله مثل جده الأكبر عندما كان في مثل سنه».

«هيا يا جدتي، ليس أمامي اليوم بطولة». أفاقت من شرودها على صوته وهو يطلب منها الحكي ثم قالت:

«كانت السماء صافية دومًا ولم يكن هناك نجوم، كان كل مَن ينظر إلى السماء يجد وجها لرب يبتسم له، كان دائمًا هناك ببسمته الأبدية ومساعدته اللا

نهائية لمَن يريده، كانت الأمطار تهطل عندما نريد أن نروي حقولنا، والشمس تُشرق حين نريد أن نعمل وتأفل حين نريد الخلود إلى فراشنا، كان دائمًا هناك.. وهذه كانت المشكلة».

شردت عيناها مرة أخرى إلى السماء ولكنها أكملت دون أن تنظر إليه: «أنت لم تجرب ذلك يا بني فلنتفهم، كان دائمًا هناك يراقبنا ويرعانا، لكن لا أحد يريد أن يكون مُراقب دائمًا، كان هناك ذلك الشاب الذي بدأ الأمر كله، يجتمع بكل الناس داخل بيوتهم ويخبرهم أنهم ليسوا أحرارًا وأن الرقابة الدائمة لهم تسلب منهم كل ما يجعلهم بشرًا، في البداية كان يُطرد من البيوت ولكن صدى كلامه كان يتردد في رءوس من طردوه وهم يسيرون في الشوارع تحت أعين الرب، يزرعون الأرض ويحصدونها تحت أعين الرب. يُصابون بالمرض ويموتون تحت أعين الرب، سرعان ما بدأ الجميع يشعر بالمراقبة والذعر، لم يعودوا يرون ابتسامة الرب دليلًا على الحب، بل كانوا يرونها كابتسامة

السجان الذي يعرف أن أسيره عاجز تمامًا عن الهروب!

أصبحت البيوت تفتح أبوابها لذلك الشاب، وأصبح الرجال يرددون كلامه فيما بينهم بعيدًا عن أعين الرب حتى أخبرهم الشاب بخطته.. في اليوم الموعود اجتمع كل أهل القرية، رجالًا ونساءً وأطفالًا ونظروا إلى وجه الرب وبدءوا في الغناء:

«إلهنا، يا إله الكون، رع، يا خالق السموات والأراضين أنت هناك في عليائك ونحن هنا تحت عينيك، نريد أن نعبدك حق العبادة ولكننا نريد قربك، إلهنا، هل يمكنك أن تمشي بيننا ولو لبضع خطوات؟».

كان غنائهم جميلًا وأرضى الرب في السموات، لذلك نزل من عليائه ليشارك البشر أفراحهم وأحزانهم فانقلب عليه البشر الجهلاء رغبة في التحرر من قبضة وهمية نسجتها خيالاتهم وحبسوه في زنزانة معلقة بين السماء والأرض، في اليوم

التالي لم ينبت العشب، في اليوم التالي لم ينزل المطر، في اليوم التالي لم تشرق الشمس. عرف البشر الخطأ الرهيب الذين قاموا به وأدركوا أن الحياة لن تستمر بدون إله فذهبوا إلى الزنزانة المعلقة بين السماء والأرض فإذا هي فارغة. نظروا إلى السماء فإذا هو الرب في علیائه ينظر إليهم بغضب قبل أن يختفي تمامًا».

توقفت لجدة عن الكلام وتلألأت دمعة في عينيها السوداء ثم نزلت بهدوء على خدها الممتلئ بالخطوط المتعرجة من فعل الزمن، كانت قد قررت ألا تحكي هذا الجزء من القصة ولكن الغضب الذي يسري في عروقها الآن دفعها إلى الحكي فنظرت إلى الشاب المتلهف وقالت:

«ما زلت أذكر الكلب الذي كان يعوي على قارعة الطريق.. كلب شوارع أجرب، هزيل البنية، يريد أن يلقي الخوف في صدور العابرين ليثبت لنفسه أنه ما ز ال حيًّا، و لكن الرعب الذي سكن القلوب لم يدع

مكانًا لأي شيء آخر..

السماء كانت حمراء قانية من أثر أمطار الدم التي هطلت من ساعتين - أو من ليلتين؟.. عقابا لرب كان صارمًا وشاملا.. رياح عاتية هبت فجأة.. تركت كل شيء وأخذت معها النساء والأطفال. فوجئ الرجال بزوجاتهم وأطفالهم يصرخون في هلعٍ ثم يرتفعون إلى السماء حتى حجبت السحب أبصار الرجال، فلم يعودوا قادرين على رؤية ما يحدث، ولكن الأصوات كانت تنقل مأساة..

مرت دقائق قبل أن يسقط من السماء أول طرف..

تعرف أبٌ مكلوم على حذاء ابنه في الساق التي لفظتها السماء.. نظرالجميع لبعضهم البعض في توجس قبل أن تنهمر الأطراف: سيقان.. كفوف.. أثداء.. لكن لم تكن هناك أي رءوس.. هناك من تعرفوا على أطراف ذويهم.. هناك ما لم يتم تحديده قط..

بكاء ونحيب بلغ كل أنحاء الكوكب المهجور قبل أن يسقط المطر الأحمر..

دماء.. دماء.. دماء..

يومها أدركت أن اللعبة انتهت.. أن الثورةعلى الإله خمدت.. أن الرب قد نال انتقامه.. ولكني كنت مُخطئة...

ومن يومها لم يعد الرب ظاهرًا لعيون البشر، ولم يعد العشب ينمو كل ليلة، وأصبح المطر يتساقط موسميًّا فقط، ولم تشرق الشمس قط.

وأصبح الناس يمشون في الشوارع غيرنائمين وغيرمستيقظين.. مفتوحة عيونهم ولكن لا يرون شيئًا.. لم يعد هناك تائهون لأنه لم يعد هناك بيت ولا وطن لأحد.. كأن العدالة الإلهية قد تحققت أخيرًا وصار الجميع سواسية.. سواسية في الفَقْد والتشرد والخسارة.. عقاب الرب كان شاملًا الجميع.

الحسنة تخص.. والسيئة تعم..

من يومها أصبح البشر وحيدين في مواجهة أحزانهم.. وحيدين في الاستمتاع بأفراحهم، من

يومها صارت القبضة الوهمية التي خلقتها عقولهم حقيقية.

وصار الخوف من الرب شيئًا يتوارثه البشر جيلا فجيل».

انتهت الجدة من الحكي والدموع تنهمر من عينيها، بينما «تحوت» يجلس مندهشًا مما سمعه ويتصاعد داخله إحساس عارم بالغضب والفقد كأنه كان هناك يوم أمطرت السماء أطراف النساء والأطفال، كان «تحوت» يشعر دومًا بأن له شأنًا خاصًا، وأن له مصيرًا ما دونًا عن أقرانه. الآن يعرف ما هو هذا المصير. لمعت عيناه وشد على كف جدته قائلًا : «لا تحزني يا جدتي؛ فلقد علمت مكانه، وقريبًا سيتخلص الجميع من الحزن العارم، وستشرق الشمس من جديد».

بَعثٌ مؤجَّل

محمود رفعت

تدفق تدريجي للدماء، وحركة بطيئة متتابعة داخل العضو الوحيد الذي لا يزال محتفظًا بموقعه داخل الجسد، قلب مُعطل يعود لممارسة وظيفته، وحياة جديدة تدب في الجسم العاري المستلقي على الأرض الترابية المسطحة. فتح كاردا عيناه وسط ظلام دامس وبدأ يشعر بعودة الحيوية في جميع أطرافه، نهض متثاقلًا يتحسس طريقه بحذر نحو نقطة نور ضئيلة وبعيدة تزداد اتساعًا كلما اقترب منها، شق مسافة طويلة ومنهكة في ظلام حالك حتى وصل أخيرًا؛ فوجد بوابة ضخمة هي مصدر الضوء، فرك عينيه بشدة وهمَّ بعبور بوابة النور، ولكن ما إن وضع خطواته الأولى داخل البوابة حتى انشقت الأرض تحت قدميه كاشفة عن ثعبان ضخم يصل طوله إلى خمسة أمتار يحول بينه وبين الدخول، هرع كاردا بعيدًا عن البوابة محاولًا الهرب فانقض عليه الثعبان وأحاط جسده

الضعيف العاري بذيله الطويل؛ فخرجت منه تأوهات ألمٍ لم تفلح في دفع الثعبان الذي أخذ في ضمه بهدوء إلى فمه الواسع وأنيابه الفتاكة، فوجد كاردا نفسه يصرخ ويتضرع وهو في طريقه إلي ظلام جديد سيدوم للأبد.

تسربت الصرخات والتأوهات عبر العقل الباطن لجيكاي وخرجت على لسانه، فنهض من نومه فزعًا وهو يتصبب بالعرق من هول هذا الكابوس المقيت، لم يهدأ ويتيقن من كونها خيالات حتى نظر بجواره فوجد جثة والده كاردا ممددة كما تركها، أزاح جيكاي ـ صاحب الثمانية عشر عامًا ـ جسده المُتعَب بتأنٍّ حتى التصق بالرجل الذي كان قبل يوم واحد ذا جسد صلد، مُفعم بالنشاط، ومملوء بخدوش وعلامات؛ يتقاسمها مع الآلاف من أقرانه عُمال البناء المصريين أبناء الطبقات الدنيا. تأمل جيكاي ملامح أبيه الذي يشاركه قسماته الطيبة وبشرته السمراء وشعره الأسود القصير، وبكى حينما تذكر الكابوس مرة أخرى، فهو يعلم أنها خيالات يمكن أن تستحيل

واقعًا بمجرد أن يبعث هذا الجسد ـ المحنط بإتقان ـ إلي العالم الآخَر وحيدًا في مواجهة وحوش عِظام وبوابات مسحورة مليئة بالأسرار.

كان جيكاي قبلها قد اتخذ قراره الجنوني بأنه لن يترك كاردا يواجه العالَم الآخر منفردًا بلا أسلحة، وتحدى برغبته تلك القوانين والأقدار والسادة، ولعله تحدى بها الآلهة أنفسهم! احتفظ بالجثة في منزلهم الصغير الهش ـ المصنوع من مواد خشبية وصلصالية خفيفة ـ بعد أن أقنع الجميع بأنها قابعة الآن بين صخور مقابر الطبقة الدنيا في انتظار رحلةٍ محكوم عليها بالفشل مسبقًا إلى الحياة الأخرى. ذلك لأنه رحل وهو كاردا؛ عامل بناء هرم الملك خوفو الذي مات في سبيل بناء قبر حصين يصون الملك من مهالك الحياة الأخرى، ويقوده إلى محاكمة تخسر فيها ذنوب قلبه في الميزان أمام ريشة الإلهة ماعت، فيكمل حياته الخالدة ملكًا مثلما عاشها في دنيا الفناء فرعونًا، بينما يقع أمثال كاردا فريسة للوحوش.

عدالة نقمَ عليها جيكاي مُذ تلقى تعليمه الأول تحت سقيفة إحدى معابد العاصمة ممفيس على يد الكاهن باسموت، ما زال يتذكر يوم جلسَ القرفصاء برفقة زملائه يستمعون لتعاليم ما بعد الموت، وخيالات السعادة الأبدية التي تلهب طمع السادة وتُسكن آلام المستضعفين. لحقَ الصغير بمُعلمه عَقب الدرس، ووجَّه له سؤالًا شديد البراءة:

ـ لماذا تكره الآلهة الفقراء؟

امتقع وجه باسموت ـ صاحب البشرة الفاتحة والشعر الأبيض الطويل المنسدل حتى الكتفين ـ وطلب من الفتى مرافقته إلي مكتبه الصغير المليء بلفافات البردي متباينة الأحجام والأشكال، ثم طلب منه تفنيد سؤاله حتى تتسنى له الإجابة بوضوح، فاسترسل الصغير بتلقائية:

ـ علَّمتنا أن الآلهة تحب رواد المعابد من المصلين؛ ومَن غير الأغنياء يملك الوقت والمال للسفر لمعابد الآلهة النائية؟! وعلَّمتنا أيضًا أن الآلهة تقبل القرابين؛

وأي قرابين يقدر عليها الفقراء؟! ويجتاز رحلة الحياة الأبدية مَن يمتلك كتب السحر، وحصانة القبور، والتحنيط السليم، وكلها صفات السادة دون العبيد! فإذا كانت هذه قوانين الآلهة فلا بد أنهم يكرهون الفقراء!

استمع باسموت لتلميذه ـ الذي اكتشف لتوه تفرده وتمرده ـ بإنصات شديد، وتحول الوجه الجاف للحكيم إلى ابتسامة حنون، صوَّب بعدها عينيه نحو العينين السوداوين البريئتين لجيكاي وقال بنبرة عطوف:

ـ أولًا، عدني أنك لن تُعيد استفسارك هذا أمام أحد آخر.

أطرق الصغير برأسه دلالة على الوعد؛ فاطمأن المُعلم وأجاب على تساؤله بجملة مقتضبة أنهى بها الحديث:

ـ ما دام قلبك ينبض بحب الحقيقة، وعقلك يسعى لتحصيل العلوم؛ فستصل للإجابة بمفردك

يومًا ما، ولكن كن واثقًا أن الآلهة التي تمجّد نقاء القلوب وتُعلي مبادئ الخيرات وتجعل منهما شرطًا للقبول في الحياة الأبدية؛ لن تكره إنسانًا لفقره المادي في حياة فانية.

هجر التساؤل لسان جيكاي ـ وهو لا يزال طفلًا في التاسعة من عمره ـ بينما عاش داخل عقله سنوات طوالًا، حتى بعد أن تقرر تركه للتعليم عقب أسابيع قليلة من هذا اللقاء. أبلغه والده أنه اكتشف عدم صلاحيته مستقبلًا للعمل في مهنة الكاتب، وأن من الأفضل له الاكتفاء بما تلقاه من علوم والسعي في مجال آخر. على الرغم من تعجب جيكاي للقرار المفاجئ وغير المفهوم ـ بالنسبة له! ـ فقد آثر الطاعة العمياء لرفيقه الوحيد في الحياة بعد أن رحلت أمه وهو لا يزال رضيعًا. في آخر يوم له بين جدران المعبد اقترب منه باسموت هامسًا وعلى وجهه ابتسامة وداع:

ـ لا تحزن يا صغيري، فلقد أصبحت الآن بمنأى

عن شرور عقلك.

كان هذا اللقاء هو الأخير بين الأستاذ وتلميذه، أو بالأحرى اللقاء الأخير بين التلميذ وتساؤلاته الفلسفية؛ التي اندثرت تحت وطأة الحياة اليومية، والعمل الجديد كمساعد لأحد التجار بأسواق ممفيس. كان التمرد لا يزال محفورًا في غياهب عقله ينتظر لحظة تفجر، أتت بمجرد سماعه خبر موت والده، هرع حينها إلي حقل العمل؛ حيث وجده ممددًا في مكتب مفتش العمال ومن حوله زملاؤه مُنكسي الرأس، متحسرين على مصير يرون فيه أنفسهم. علم بعدها تفاصيل الحادث المأساوي؛ حيث كان كاردا أحد العمال المسئولين عن استقبال الأحجار الضخمة القادمة عبر سفن فرع النيل الجديد ـ المحفور خصيصًا لنقل المواد الخام من الجنوب إلى ممفيس ـ ومن ثمَّ نقلها عبر عربات الخيول إلي موقع بناء الهرم. وفي ذلك اليوم المشئوم تسبب قطع في الحبال المستخدمة في إنزال الأحجار من السفينة في اصطدام حجر ضخم

ـ يفوق وزنه الطن ـ برأس كاردا؛ فأطاح بجسده بعيدًا ليرديه قتيلًا في الحال، بينما حالت الدَّفعة القوية دون تحول جسده لأشلاء تحت الحجر.

بدا جيكاي قويًّا متماسكًا رغم ما يقطن بداخله من ألم، وأثناء نقله للجثة من موقع البناء عادت الحياة طبيعية للجميع، فكانت تلك العادية مبعثًا لشرارة الغضب في رأس الفتى؛ الذي شعر مجددًا بانعدام قيمة أحزانه وآلامه أمام أطماع الملوك في بناء القبور. استخدم خبرته العلمية في نزع الأحشاء وتحنيط الجثة جيدًا من الداخل مع الإبقاء على القلب في مكانه، وفي تلك الأثناء بدأت خيوط الفكرة تُنسج بمهارة داخل عقله.

مسح جيكاي دموعه التي انغمرت في رثاء أبيه ـ لأول مرة ـ بعد كابوس احتل غفوته القصيرة. لم يتبقَّ الكثير على انتصاف الليل وحلول موعد تنفيذ الخطة، استعد جيدًا بتحضير الحبال وشموع الإضاءة، وتذكر الخريطة المطبوعة في الذاكرة منذ

الصغر. قبلَ رأس أبيه ـ المصابة ـ بفخر، والحماس يضرب في أوصاله وهو يشعر لأول مرة أنه ملك نفسه وصاحب قراره. وقبل أن يغادر المنزل وجد تمثالًا للإلهة ماعت ـ إلهة العدل ـ فقرب شمعة الإضاءة من المُجسم وخُيل إليه أن في نظرتها تحديًا ما! ابتسم بثقة وفي عينيه لمعة جريئة، وقال دون تردد:

ـ نعم.. أقبل التحدي.

وصل جيكاي إلى المعبد القديم بعد رحلة قصيرة مظلمة يحفها عواء الذئاب وأصوات الحشرات متباينة النغمات، كان الشاب شديد الحذر عند سلوكه الطريق إلى الجهة الخلفية للمعبد، حتى لا يلحظه أحد. من حُسن حظه أن حراس المعابد غير مُكترثين كثيرًا بتشديد الرقابة؛ فعامة الناس ـ حتى المجرمون ـ يهابون فكرة الاقتراب من المعابد المحصنة من الآلهة بالسحر والتعاويذ، كما أن محتوياتها ليست بمطمع للسرقة أو النهب، فوحده

جيكاي يعلم قيمة ما بالداخل ويسعى إليه.

خلع جيكاي رداءه الكتاني القصير ـ تسهيلًا للحركة ـ حتى صار عاري الجسد عدا ما يستر عورته، واحتفظ بالأدوات بين قبضته. كانت الخطوة الأولى هي استدعاء روح الطفل الذي يحفظ خريطة المكان جيدًا دون الحاجة للضوء، ولوهلة أدرك الشاب قيمة اللهو واللعب حين تذكر بسهولة كل مخابئ المكان وثغراته التي استخدمها في الطفولة، اعتلى جيكاي ظهر المعبد بتأنٍّ من منطقة حجرية مُدرجة تسمح له بالصعود حتى السطح، ثم تحرك ببطء وحذر على الحافة حتى وصل إلى فتحة سقفية ـ تسمح بعبور أشعة الشمس إلى البهو الرئيسي للمعبد ـ ربط طرف الحبل جيدًا في نتوء أحد الأعمدة، وألقى بالطرف الآخر داخل الفتحة، شرع في النزول بهدوء حتى لا يثير انتباه حُراس البوابة الرئيسية، وبعد ثوانٍ قليلة أصبح داخل البهو الرئيسي للمعبد. نظر حوله حتى تيقن من خلو المكان تمامًا، فقام بإشعال شمعة صغيرة،

واعتلته الرهبة والخوف لأول مرة في تلك المغامرة حين رأى الطلاسم والكتابات المرسومة على جدران المعبد؛ ولكن دوافعه كانت أعظم من أي قوة ستفكر في مجابهته.

تخطى جيكاي العديد من الممرات المليئة بالغُرف الفارغة والمظلمة، وشعر بالامتنان للحظوظ التي أبقت كل ركن كما استدعاه من الذاكرة، وبعد دقائق قليلة وصل إلى بوابة كبيرة تسد نهاية أحد الممرات. كانت مساحة البوابة والنقوش المميزة المحفورة عليها كفيلتين ليتيقن من وصوله للمكان المنشود. فتح البوابة بحذر شديد فأحدثت صريرًا توتر على إثره لبرهة قبل أن يطمئن أن ما من أحد شعر به. أضاء شمعة كبيرة وثبتها على منضدة تنتصف الغرفة؛ فتراءت له تفاصيلها، كانت رغم سعتها الكبيرة خالية من كل شيء إلا بعض لفافات البردي المتراصة بعناية فوق مصطبة واسعة مُرصعة بنقوش زاهية الألوان، التقط إحدى اللفافات وفك عقدتها وبدأ يتفحص بعناية محتوى البردية؛

فارتسمت على وجهة ابتسامة رضا.

الآن يمتلك الحل السحري لنجاة أبيه، كتاب الخروج إلى النهار؛ بردية الموتى ـ عظيمة الحجم ـ التي تدفع شرور رحلة البعث وتصل بالمتوفى إلى النهار الأبدي. لم يملك ثمنها يومًا إلا المقتدرون من السادة، أما الآن فستصبح ملكًا لعامل فقير، وسيُحفر اسم كاردا داخلها بجوار تعاويذ تقيه شر شطار الطريق إلى محاكمة القلوب النقية. قطع احتفال الشاب صوت أقدام تزحف نحو الغرفة، فأعاد البردية لموقعها وأطفأ الشمعة وتخفَّى خلف باب الغرفة المفتوح. دخل حارسان ـ يحملان شمعة ـ ميّزهما جيكاي من العصي الطويلة، والمعاطف البيضاء التي تغطي الملابس الساكسونية القصيرة، ثم شرعا في مسح الغرفة ببصريهما، حتى قال أحدهم بثقة:

ـ لا شيء! لا بد أن الرياح تسببت في فتح البوابة.

همَّا بعدها بالانصراف.. قبل أن يتوقف الحارس

الآخر فجأة.

ـ انظرا! إحدى البرديات موضوعة بشكل عكسي!

ـ صحيح! لا بد أن أحدًا ما قد عبث هنا.

وقبل أن يشرعا بالبحث، انطلق جيكاي من وراء البوابة هاربًا نحو الممر الطويل، فلحق به الحارسان مُطالبان إياه بالتوقف. مشاعر رعب أصابت الشاب المنطلق وسط ظلام حالك، وفي إثره الموت المحقق، وفي لحظة إحباط كان قد اقترب فيها من الاستسلام لمصيره، جُذبه شخص بقوة داخل ممر فرعي وأمره باتباعه إذا أراد النجاة! رضخ جيكاي وتبعه في الظلام؛ حتى أدخله الرجل غرفة وأمره بالبقاء فيها، بينما خرج هو ليستقبل الحراس.

ـ هل أنت بخير أيها الحكيم باسموت؟

ـ بخير حال يا بني! هل حدث شيء ما؟

ـ شخص حاول العبث بغرفة برديات الخروج إلى النهار، ونحاول اللحاق به.

ـ لا تخافوا يا أبنائي؛ فكل شيء هنا محروس ببركة الآلهة، وحتمًا ستعثرون عليه!

شكرَ الحارسان باسموت ورحلا، وتكشفت ملامح الكاهن بعد أن أشعل الضوء وأغلق باب الغرفة، فوجدها جيكاي كما ألفها رغم زيادة المشيب.

ـ أي تلميذي النجيب! عليك أن تشكر الآلهة لسماعي صرير البوابة، وذهابي لتفقد الأمر، فلا أحد غيري يبيت هنا ليلًا.

ـ ما زلت تذكرني؟

ـ وهل أنسى المتمرد، الذي أوقعني في خطيئة كبرى؟!

ـ خطيئة كبرى!

ـ لقد تيقنت يوم ناقشتك أنك ستصل للحقيقة يومًا ما، فطلبت من أبيك إبعادك عن المعبد حتى لا تقضي نَحبَك يومًا ما مشنوقًا بتهمة الهرطقة الدينية، أو تضطر إلى أن تُصبح مثلي!

صمت الشاب دهشًا، ولم ينطق، فاسترسل باسموت:

ـ لم أتوقع أن كبحي لتمردك ضد الثوابت الدينية سيفتح بابًا آخر لتمردك ضد قوانين الموت! لقد عشتُ معذبًا لسنوات طويلة أعلم الحقيقة وأهاب قولها. الكتاب الذي كدتَ تفقد حياتك ثمنًا له هو في الحقيقة بردية انتفاع للكهنة، ومجموعة أوهام مكتوبة تُباع بالمال!

ـ تقصد أنه لا مفر من العذاب؟

ـ لا.. بل أقصد أن الآلهة التي تدعو للمحبة والخير، وتقاضي أعتى البشر من الأقوياء على ميزان العدل، لن يستعصي عليها حماية موتاها، ولن يقمع قدرتها سِحر ولا وحوش عِظام! بينما الآلهة التي تُباع لخيالات العامة تزيد من نفوذ السحرة والكهنة والحكام، فالخوف من المستقبل والمجهول هو السلاح الأمثل لقهر الضعفاء.

قنع جيكاي بكلام مُعلمه بعدما مرت الحقائق

مترابطة داخل عقله، ثم بكى متذكرًا وفاة أبيه وما آلت إليه الأحداث من بعدها، فاقترب منه باسموت، وربت على كتفه وطمأنه بأنه سيقوم بتهريبه خارج المعبد في الصباح؛ على أن يعد كل منهما الآخر بمحو تفاصيل هذا اليوم من الذاكرة نهائيًّا!

شمس جميلة، ومُشرقة تبث الحياة فوق أرض صخرية قحلاء. أفرغ الشاب محتويات صندوقه القديم، لا تزال الأقلام والأحبار صالحة رغم مرور سنوات، فتح ورقة البردي الفارغة واستعاد جلسته القديمة، الآن فقط عادت روح التلميذ ابن التاسعة، ملأ الورقة ووضعها بجوار أبيه، ثم واراه صخور القبر مُبتسمًا مطمئنًّا.

قلب يدق، وكاردا يُبعث من جديد في وسط الظلام، يجد ورقة صغيرة بجواره فيمسك بها، ويتوجه لنقطة الضوء التي تتسع كلما سعى نحوها، يقف أمام بوابة النور، ويقرأ البردية على ضوئها:

«اعبر النورَ يا أبي، اعبر في سلام واطمئنان، لا

تخف سِحرًا ولا وحوشًا؛ فورقتي هي بردية الخروج الحقيقي إلى النهار، والسحر والسر هو قلبك المنتصر في كفة الآلهة، فادخل بسلام إلى جنة لم تذُقها في حياة الفناء، ستجد أمي وكلَّ مَن أحببتَ هناك، سلامي لك ولهم حتى موعد عُبوري».

الأفعى

محمد صلاح الدين

غالبَ الألمَ الشديد الذي غمر رأسه كي يفتح عينيه بصعوبة بالغة، لم يستطع أن يرى شيئا، رائحة التحنيط كانت تملأ أنفه، كان ممددًا داخل صندوق، هكذا أدرك عندما بدأت يداه تتحسسان ما حوله، شخص ما كان يرقد بجانبه ولكنه لا يُبدي أي حركة، كان الصندوق الحجري ضيقًا يكاد يسحق أنفاسه «كيف وصلت إلى هنا؟»، أضاء آخر مشهد مُخيلته بضباية بينما كانت يده قد عثرت على ما يُشبه المزلاج.

«لا تحزني يا أماه»، قالها وهو يُقبل رأس ميريت أم خطيبته تانيس، واختلطت دموعه بدموعها، فقد كان يواسيها في أقرب إنسان إليه؛ أستاذه ومربيه وراعيه وأبي خطيبته المُعلم بتاح، كانا في طريقهما إلى الحجرة الجنائزية ليُلقيا آخر النظرات على المعلم بتاح، اختلط صوت خطواتهما البطيئة

بصوت بكاء ميريت، بينما كانت الظلال التي تخلفها المشاعل في ذلك الممر الطويل ترسم موكبًا جنائزيًّا مهيبًا قطعه صوت الخادم الأكبر «سيدتي ميريت، سيدي أوني»، حياهما الخادم وكان الحزن واضحًا في صوته. «لقد انتهى الكهنة من عملهم، وكل شيء أصبح جاهزا»، تعالى صوت نُواح ميريت عندما رأت زوجها يرقد في تابوته، كان صدى صوت ضحكاته ما زال يملأ جنبات القصر، بينما هو ينتظر هنا ليلقوا عليه نظرة الوداع، ناولهما الخادم شرابًا ليهدئ من روعهما، بينما تحرك أوني ليقف بجوار التابوت وينظر إلى مُعلمه الذي غطته أقمشة التحنيط وانفجرت ينابيع الدموع من عينيه». أبي الذي لم يلدني وأستاذي وصديقي، أهذه آخر لحظات نقضيها معًا»، شعر بخدَر يسري في جسده بينما أحس بيد ميريت تُوضع على كتفه، وسمع صوتها المتهدج المليء بالدموع، «ربما لا تكون آخر اللحظات»، قالتها بينما خانته قدماه وأحس بالخادم يسنده من ظهره ويضعه أرضًا ليرى دموع ميريت

وهي تقول: «وداعًا أوني».

اختلط المشهد في رأسه بصوت المزلاج وقد نجح في فتحه ليزيح غطاء الصندوق بصعوبة ويجلس، لم يستطع أن يرى جيدً، فقد كانت المشاعل التي تملأ جدران الغرفة تُعمي عينيه، استند بذراعه على جانب الصندوق ليُخفي عينيه. «إذن ميريت هي مَن وضعتني هنا». استدار وقد تذكّر ذلك الجسد بجانبه لينتفض وكأنما لدغته أفعى ويسقط على الأرض، بينما كان يحاول الخروج من الصندوق، فالجسد الذي كان نائمًا إلى جواره لم يكن سوى جثة مُعلمه بتاح.

لم يدرك كم من الوقت قد مضى وهو جالس في طرف الغرفة التي لم تكن سوى حجرة الدفن في مقبرة بتاح، كان قد بحث بلا جدوى لعشرات المرات عن أي مخرج، كانت المشاعل من حوله تتراقص لتزيد من جنون أفكاره. «ما الذي أتى بي إلى هنا؟ كيف تلقي ميريت بخطيب ابنتها إلى المقبرة؟ لقد

كانت ميريت تُحبه وكيف لا وهي مَن شاركت زوجها لأعوام في رعايته ووافقت على خطبته لتانيس! وهل تعرف تانيس بما حدث؟». غمرت صورة تانيس عقله وتذكر نظرة عينيها في آخر مرة رآها قبل وفاة والدها.

كان يجلس أمامها في حديقة القصر والشمس تنعكس على شعرها اللامع وينكسر ضوؤها وتتوارى عندما تلتقي بابتسامة تانيس المُشرقة وهي تضحك وتقول: «جبان، مُتردد، عذّبتني وعذبت نفسك لسنوات وحرمتنا من هذه اللحظات»، ضحك وهو يمسك بيدها ويقول: «وما الذي كان يدريني أن الحلم الذي حلمت به، وكان يسكن كل نفَس أتنفسه كان يبادلني نفس الشعور؟ أو أن مُعلمي بتاح سيقبل أن يزوج ابنته لتلميذه الذي لا يملك شيئا؟»، سحبت يديها من بين يديه وقالت: «رأيتني أُخطب أمامك ثلاث مرات ولم تتحرك! ماذا كنت تنتظر؟ أن توصلني إلى بيت زوجي بيديك هاتين؟». نظر أوني في عينيها «كنت أكتفي بظني أنكِ ستكونين

سعيدة، وكنت أكاد أقتل نفسي في كل مرة أراكِ تلبسين حلقة البعث في أصابعكِ لتربطكِ بغيري...»، قاطعته قائلة وهي تُغالب ابتسامتها ولترسم نظرة مَن أمسك بمجرم متلبسًا بجرمه المشهود: «هل اتفقت مع إله الشر ست ليقتل كل مَن خطبني قبلك؟»، نظر أوني إليها وأمسك يديها يداعبهما بشفتيه، «بل أظن أن إلهنا رع أبى أن يموت حُبنا المكتوم وتدفن معه سعادتنا، فأمر أن يموت كل مَن يقترب منكِ ليغمرنا بهذا الحب الذي خلقه من أجلنا». نظرت إلى شفتيه اللتين تداعبان حلقة البعث التي التفت حول أصابعها لتعلن عن خطبتها له وهي تقول: «أحبك».

«هل يُعقل أن تكون تانيس على علم بما يجري؟»، قالها وهو يقوم من مكانه ويبحث كالمجنون للمرة الألف عن أي طريق إلى خارج الغرفة. نظر إلى الصناديق الموضوعه في جانب الغرفة والتي من المفترض أن تحوي متعلقات بتاح التي يحبها ليأخذها معه إلى العالم الآخر، «هل يُعقل أن أكون

أحد متعلقاتك يا مُعلمي». قالها كالمجنون وهو ينظر إلى جثمان مُعلمه النائم في صمت داخل الصندوق.

«هل من اللائق أن أفتح الصناديق؟»، قالها وهو يفتح الصندوق الوحيد الذي كان بلا قفل ويمد يده داخله ليجد الصندوق خاليًا إلا من رسالة مطوية بعناية.

«أوني العزيز، عندما تقرأ هذه الرسالة فلن يكون هناك إلا أنا وأنت، تلميذي العزيز، لا تجعل الأفكار تثير جنونك، أستطيع أن أرى وجهك المندهش الغاضب عبر أغطية تحنيطي، ولا تسأل لماذا أنت هنا، أنا مَن وضعتك هنا، ولكنك وحدك مَن تستطيع الخروج.

ستجد مفتاحًا مع هذه الرسالة، افتح به الصندوق الأوسط، وبداخله ستجد الإجابة على كل أسئلتك، وستجد كذلك مفتاحك للخروج.

صبرًا أوني، قبل أن تحضر المفتاح فإن هناك ما يجب أن أخبرك به: هذا الصندوق مُكون من نصفين،

كلا النصفين يحتوي على فتحة للمفتاح، إحداهما تحتوي على طريقك للخروج، والأخرى بداخلها أفعى سامة، ما إن تفتحها حتى تنال لدغة قاتلة من تلك الأفعى، فاحرص على أن تختار النصف الصحيح. وداعًا أوني!».

جلس أوني مذهولا للحظات مُتسمرًا في مكانه وهو يرى نظرة مُعلمه الماكرة التي لا تخلو من براءة الأطفال التي اعتاد أن ينظرها إليه كلما ألقى عليه إحدى أحجياته أو إحدى مسائله العلمية المعقدة. انتفض من مكانه ليهز جثمان مُعلمه وهو يصرخ : «أهذه لعبة؟ هل حياتي لعبة؟». انهار بجوار جثمان بتاح وهو ينتحب: «ما الذي فعلته أنت؟ وما الذي فعلته أنا؟ لعبة! أتنتهي حياتي بلعبة؟». ساعة أو ساعات أو ربما أعوام مضت وأوني يمسك بين يديه بالمفتاح يحدق فيه، ثم لا يلبث أن يعود إلى فتحتَي الصندوق، لا يوجد فارق بين النصفين، ليست هناك أي علامة، ولا يمكن تحريكه لمعرفة ما بالداخل، فقط فتحتان مقعرتان على قدر حجم كف

يده، يجب أن يضع يده مع المفتاح داخل إحداهما ويضغط لتنطلق يده إما إلى الحرية وإما إلى رحلة بلا عودة للعالم الآخر! «هل يطلب مني أنا أن أخوض هذا الاختيار؟ وكيف يمكن أن أختار؟!».

ساعة أو ساعات أو ربما أعوام مضت، فتح عينيه بعدها ليجد نفسه مُلقى أمام الصندوق والمفتاح بين أصابعه وقد أعياه التعب ونهش جسده الجوع والعطش. «هل سأموت هنا؟». أمسك المفتاح وبيده المرتعشة حاول أن يمد يده داخل الصندوق للمرة الألف، ولكنها سرعان ما عادت لتسكن حجره وتحتمي به.

كان قد أعياه التعب والخوف والتردد تمامًا عندما فتح عينيه للمرة الأخيرة، كان يجد صعوبة شديدة في النهوض من مكانه، أصبح نفسُه ثقيلا، «سأموت في جميع الأحوال، إذا بقيت هكذا فسأموت، وإن لدغتني الأفعي فسأموت، لا بد أن أجد المفتاح، هل سأرحل عن الحياة دون أن أراكِ

مرة أخرى يا تانيس؟»، قالها وهو يرفع يديه وكأن فوقها تلالا من الرمال ويزحف ليجلس إلى جانب الصندوق، أمسك المفتاح بكلتا يديه وكأنه يمنعه من الهرب ووضعه داخل إحدى الفتحتين، لم يفكر حقًّا أيّ نصف هو، مال بجسده فوق الصندوق واضعًا ثقل جسده فوق المفتاح، أغمض عينيه وتراءى له وجه تانيس بابتسامتها المُشرقة، دفع جسده إلى الأمام كأنه يميل ليُقبلها ـ تك ـ هوى على وجهه، بينما كانت يده قد اندفعت تحت ثقل جسده لتخترق فتحة الصندوق في رحلة إلى المجهول، وكأنه قد تخلص من كل تعبه، انتفض كالمجنون واقفًا ساحبًا يُمناه إلى الخارج، تحسس يده بجنون، لم يكن هناك شيء، عاد إلى الصندوق مرة أخرى ووضع يده داخله، لم يستطع أن يتخلى عن حذره وهو يبحث بداخله قبل أن تسمع أذناه صوتًا انساب إليها وكأنه أعذب الترانيم؛ صوت احتكاك الرسالة بقعر الصندوق عندما لامستها أصابعه المرتجفة. تنهد وكأنه ولد من جديد.

«تلميذي العزيز، إذا كنت تقرأ هذه الرسالة فهنيئا لك، كم أنا سعيد بهذا! لا تدري كم كنت أخاف أن تموت وأنت تمسك بالمفتاح وتجلس إلى جوار الصندوق، وكعادتك تخشى أن تختار، وترفض أن تحارب من أجل اختيارك.

أعوام قضيتُها معك، كنت أرعاك كابن لي، كنت أرى ذكاءك وطموحك، ورِقة قلبك وحبك للخير، وأمانتك وعلمك وقوتك وتحمُّلك لمسئولية مَن حولك، ولكن كل هذا كان يزوي دائمًا عندما تأتي إلى لحظة الاختيار، هذه اللحظة التي يتوجب عليك عندها أن تحمل اختياراتك وتقتحم الباب.

رأيت حب تانيس في عينيك وفي تصرفاتك، بل في نبضات قلبك وصوت أنفاسك، وشاهدتك والخوف يقتل حبك، ورثيت لحالك في كل مرة كنت تتركها تفلت من بين يديك دون أن تحارب من أجلها.

كم كنت سعيدًا عندما هزمت خوفك ووقفت

أمامي لتطلب الزواج من تانيس ـ لم تكن قد هزمته تمامًا فقد كنت تتصبب عرقًا وترتجف كأنك ستُلقى إلى الجحيم ـ ولكني ترددت كما تذكر، ولم يكن ترددي سوى لأني خفت على مصيرها إذا تزوجتْ بك، ولم تكن قادرًا على أن تختار لها ما يجعلها سعيدة.

السبب الأول في وجودك معي هنا هو أنني أردت أن أراك تختار، وأن تُقدِم على تحدي الموت من أجل اختيارك. تلميذي، إذا أردت أن تحيا فعليك أن تُعمل عقلك ثم تختار، وتنطلق في حربك من أجل اختيارك.

ملاحظة أخيرة.. السبب الثاني لوجودك هنا ومعه مفتاح نجاتك ستجده في الصندوق الثالث، لا تخشَ شيئا، لا توجد أفعى في الصندوق الثالث. وللعلم يا تلميذي العزيز، لم تكن هناك أفعى في هذا الصندوق، الأفعى الوحيدة التي كان من الممكن أن تقتلك في هذه الغرفة.. هي خوفك أنت».

جلس مذهولا للحظات، وكالمخدر أمسك المفتاح ودسّه في فتحة النصف الثاني للصندوق؛ فتحة الأفعى، مد يده إلى الداخل لتلمس رسالة، وبالطبع كانت نفس الرسالة السابقة.

أمسك مفتاح الصندوق الثالث بين يديه، بينما كانت الدموع تغرق وجنتيه، كانت كدموع التوبة عن ذنب أدمن فعله، ففي اللحظات السابقة مرت حياته أمام عينيه، كل إخفاقاته كانت دائمًا تأتي من عجزه عن أن يختار، وإن اختار فعدم إيمانه باختياره مما لا يجعله يحارب من أجله، خسر أعوامًا من عمره يكتفي بمقعد المتفرج على الحياة، «شكرا مُعلمي بتاح». قالها وهو يفتح الصندوق الثالث.

«ابني العزيز أوني، تذكر منذ أعوام عندما تقدم الكاهن الأكبر «بينجم» ليخطب تانيس لابنه، وتعلم أني رفضت ذلك وقتها، لما أعلمه عن الكاهن وابنه. بالتأكيد تذكر ذلك؛ فقد كدت ترقص فرحًا حينها، ولم تستطع أن تخفي فرحك بهذا ـ في اليوم التالي

أرسل لي الكاهن برسول أخبرني أنه لعن تانيس، وبأن أي إنسان سيتقدم لها سيُدفن قبل أن يتزوجها. في البداية سخرت منه ولم أصدقه، وبعد موت خطيبها الأول قلت لعلها المصادفة، ولكن عندما مات خطيبها الثاني ثم الثالث أدركت أن هذه اللعنة حقيقة، حاولت بكل الطرق، لجأت إلى أصدقائي من الكهنة، ولكن الأمر كان مستحيلا، كان هذا هو السبب الثاني لترددي حين تقدمتَ لخطبتها، كنت أعرف أنها تحبك، وأنك الوحيد الذي سترعاها من بعدي، ولكني كنت أخشى عليك من اللعنة، ولن تدري كم كنت أقضي الليالي مُرتعبًا، وأشكر الله كل صباح عندما أراك أمامي حيًّا.

ثم خطرت لي هذه الفكرة العبقرية بينما كنت على فراش موتي؛ أي فكرة؟!

أين أنت يا تلميذي العزيز الآن؟ مدفون معي، أليس كذلك؟ وهأنذا قد خدعت اللعنة وفككتها ودفنتك قبل زواجك بابنتي.

أوني، تانيس لا تعلم شيئًا عن هذه اللعنة، ليبقَ هذا سِرنا أنا وأنت وحبيبتي ميريت.

ابني الذي لم ألده، ستجد بداخل هذا الصندوق مفتاحًا، وستجد نقشًا لرمز الحياة على الحائط بجوار تابوتي. في أدنى النقش ستجد شقًّا للمفتاح، ومن ثَمَّ طريقك إلى العودة، اعتنِ بميريت وتانيس، ما الذي تنتظره يا صديقي؟ فلتعبر إلى الحياة».

وضع أوني المفتاح داخل الشق، ودفعه، لتتحرك صخرة من الحائط كاشفة عن نفق ضيق، أدخل رأسه فيه، ثم ما لبث أن عاد ليقف أمام تابوت مُعلمه وينحني مُقبلا يده لآخر مرة، مُبللا أقمشة التحنيط بدموعه المنهمرة، أعاد الغطاء الحجري فوق الصندوق، قبل أن يتجه إلى الحائط، وبلا تردد دفع جسده عبر النفق، ليعود إلى الحياة.

انْسِلاخٌ عَذْب

طاهرة السيد مهدي خليل علي

ليت العصي وبلاطات القصور نواطق، لعلها بذلك تسعفني في إكمال روايتي الناقصة.

دفعَتْ اليدان الحنطيتان جسدي الهزيل برفق، ليجد له مكانًا بين صفوف الفتيات. في حركات سريعة مررَت الأصابع الخشنة في شعري، ورتبت على جسدي الثوب الأبيض الكتاني الخشن متوسط الطول. ثم في لحظة شهية أدفأت الشفتان الحنونتان خدي الأيسر بقُبلة ألحقتها بقرصة خد لطيفة، استشعرت فيها كل الخطوط التي خلفتها حزم الكتان على السبابة والإبهام. لامس ذيل ثوبها الكتاني ساقي، وكأنه يقول لي مواسيًا «لا تحزني»، بينما سكبت رياح طيبة(1)همسًا رخيمًا في أذني «فليحفظك آتون(2)الكبير».

مال القرص المضيء نحو منازل الأموات(3)بينما كنت أعتلي آخر درجات مدخل القصر. بضع خطواتٍ

أخرى مُرهِقة، واستقبلتني عند الباب ست أياد شمر في فحص دقيق. دُفع بي عقيبه إلى غرفة هي أكبر من مخدع الفلاحين الذي افترشت أرضه طوال سنيّ عمري العشر. في نهاية الغرفة امرأة فارعة الطول، تجلس منتصبة على كرسي من خشب الجميز، وَفي تقاسيم وجهها مسحة من الحكمة لا يمكن للعين تجاهلها. فلم أستغرب أن جُل حديثها كان بغرض قياس ذكاء الخادمة ومعرفة ما تجيده من حِرَف؛ لتضع كل ترس في موضعه فيتعاشق مع باقي التروس في الاتجاه الصحيح، أما هي فرئيسة الخدم التي تُدير صندوق التروس.

تقدمتُ نحو رئيسة الخدم إذ حان دوري. خُيِّل لي أثناء الحديث أنها رغم صرامة تقاسيمها ابتسمت، وعندما فرغت من إجابة السؤال الأخير قالت بلهجة فيها شيء من الإعجاب: «وهبكَ آمون(4) بلاغة الجواب وفصاحة اللسان. فلتحفظك الآلهة». ثم أشارت لي بيدها لأدخُل إحدى الغرف الجانبية.

عندما دخلتُ تلقفتني يدان رحيمتان، أسكتتا بطني الذي افتقد رغيفَي الغداء والعشاء فأخذ يطلب الطعام في أصوات مسموعة. وبينما أنا أمضغ شيئًا من لحم الطير الذي لم أعتد تذوقه إلا في الأعياد، سألتني: «من أين جئتِ يا ابنتي؟»، أجبت بعد أن ابتلعت لقمتي: «من حقل كتان يبعد مسيرة عشرة أيام من هنا. كنت أشتغل في الفلاحة مع عائلتي». «منذ اللحظة ستتناولين ثلاث وجبات مشبعات، وستحصلين على مكافآت مُجزية ترسلينها لعائلتك. ستعملين وصيفةً للسيدة زوجة الفرعون توت». لهج لساني سريعًا: «الشكر لآتون». فبادرت بوضع كفها سريعًا على فمي، وهمست بعد أن التفتت ناحية الباب: «في هذا القصر معبد للإله آمون، وأنتِ على علم بالجلبة التي حدثت لتعود البلاد لعبادته. احتفظي بمعتقداتك لنفسكِ يا ابنتي». كانت تلك المحادثة بداية حديث استمر ساعتين متواصلتين، تعلمت فيه آداب البلاط والخدمة بينما تجولنا في بعض مرافق القصر، حتى

وصلنا إلى باب غرفة الوصيفات.

استقبلتني الوصيفة ليكتارا(5) حالما ولجتُ الغرفة بعناق حنون: «أهلا بالرفيقة». كانت غرفتنا بسريرين متطابقين محشوين بالقش بينهما حصير صغير، وعند زاوية كل سرير سلة متاع صغيرة. في كل سلة ثوبان كتانيان مُخصصان لوصيفات السيدة. ليكتارا لفرط سعادتها بالرفقة الجديدة أخذت تتحدث إليّ دونما انقطاع، فآنستني إذ كان ذهني في حقل الكتان، يفتقد ثرثرة شقيقاتي الخمس وصوت شخير والديّ، فجافاني النوم أنا الأخرى.

دخلتْ خيوط القرص المضيء من نافذة صغيرة مستطيلة الشكل أعلى سريري. أخرجتُ رأسي وذراعيّ أتحسس نسيم طيبة وأنظر لحديقة القصر المترامية الأطراف، وكانت المرة الأولى التي أطل فيها من نافذة، فنوافذ مخدع الفلاحين شديدة الصغر والعلو. أما ليكتارا فتحركت كالجنود، ترتب الفراش، وتغير ثوبها سريعًا، ثم وكزتني لتحثني

على القيام بالمثل.

«استعجلي. ابتلعي دون أن تمضغي»، صرخت ليكتارا، ثم سحبتني من ذراعي حالما أنهيت رغيف الخبز. عبرنا رواقًا طويلًا على جانبيه ستة أبواب ذهبية مزخرفة: غرفة للفرعون وأخرى لزوجته، غرفة للطعام، مكتبة الفرعون، حمامان مَلكيان، وفي نهاية الرواق باب سابع هو غرفة الحكم الذي فاق بابها كل الأبواب جمالًا وعظمة.

طرقت ليكتارا باب غرفة السيدة برفق لتستفيق: «سيدتي.. سيدتي»، ولم تُطِل السيدة علينا: «أدخلي ليكتارا». ولجنا غرفة بهية، جدرانها مزخرفة ومزينة بالمرايا المرصعة بالزبرجد الأحمر والأبيض، وجسد السيدة لا يزال مرتخيًا على سريرها الكبير. «ما اسمك؟»، سألتني السيدة عندما اعتدلنا من الانحناء، أجبتها: «وصيفتك ياسمينا». قالت السيدة وقد تركت الفراش: «جيد. ليكتارا ساعديني في الحمّام»، ثم أشارت لي بكفها: «أما أنت فأعدّي لي

الحلي والملابس».

كان للسيدة خزانة مكتنزة بالملابس والحلي، وطاولة للزينة مكتظة بمساحيق التجميل. ساعدنا السيدة على ارتداء ثوبها الأبيض الكتاني ذي الذيل الطويل المُزين بقماش من الحرير الأزرق السماوي مع حزام مذهب، علقتُ على صدرها قطعة من الذهب الثقيل وشدت ليكتارا على ساعديها قِطعًا من الحلي. رتبنا شعر السيدة الأسود القصير بينما هي تضع على وجهها المساحيق، ثم زينَّا رأس السيدة ختامًا بالتاج الملكي. عقيب ذلك، حيَّت السيدة بكفيها تمثال آمون الذهبي الجالس بين مساحيق التجميل على طاولة الزينة، ورافقناها إلى باب غرفة الطعام حيث تلتقي والفرعون على مائدة الإفطار.

(طق، طق، طق). وانحنت ليكتارا باتجاه مصدر الصوت، فانحنيت معها على غير هدى. لم أتمكن من إلجام فضولي فحركت بؤبؤيَّ الأخضرين الشاحبين

نحو مصدر الطقطقة في محاولة لاختلاس النظر. رأيت ساقين رجوليتين بيضاوين تنتعلان خُفين بلون الخشب، وقد سبقتهما عصا ذهبية تزينها خطوط ونقوش بزُرقة النيل. «فليحيَ الفرعون توت عنخ آمون»، قالت ليكتارا، وكنت قد وقعت مغشيًّا عليَّ لفرط الخوف. فقبل التحية التي ألقتها ليكتارا بلحظة كان فضولي قد غلب عقلي، فاعتدلت ونظرت في عينَي الفرعون، وكأني نظرت مباشرة إلى القرص المضيء.

لم ألحظ كم يحمل وجه ليكتارا من تقاسيم والدتي حتى أيقظتني الرفيقة بلطمة خد قوية، أوقعتها في نفس موضع تلك التي طبعت أمي أثرها على خدي الأيمن يوم اعتدلت من الانحناء لأنظر للحصان الأسود الذي يجر خلفه عربة بيضاء خفيفة تحمل العزيز(6) وسائق عربته واقفين أثناء تفقد المحاصيل. ولم أشعر بالندم على تلك المرة فقد كنت أرى الحصان للمرة الأولى.

«استيقظَتْ؟»، طرق صوت رجولي في نبرة جادة صارمة أذني. «أرجوك لا تعاقبها سيدي، ياسمينا حديثة بأصول القصر والخدمة. إنها ساعات خدمتها الأولى»، همست ليكتارا برجاء، أما أنا فقلت برجاء مسموع بينما عيناي شاخصتان للسماء: «الطف بي يا آتون». فقابلتني ليكتارا بصفعة أخرى أعنف من سابقتها. لكن الملك باغت مخاوفنا بضحكة عذبة، وهمس بصوت رقيق ممازحًا وكأنه يقلد السيدات: «هل أنا النداهة(7) يا ياسمينا؟». عندها أغمضت عيني وهززت رأسي في إيماءة للنفي بينما أقاوم الابتسام، ولم أفتح عيني مُجددًا حتى سمعتُ صوت باب غرفة الطعام الثقيل.

ساعدتني ليكتارا لأقف. وعندما تقابل وجهانا قالت وهي تمسح بيديها على موضع الصفعتين: «غبية!»، فأجبت بابتسامة فيها شيء من الموافقة. ثم ركضت عند أقرب مرآة، تارة أراقب أنفاسي التي باتت كأنفاس عصفور صغير، لا تكاد تدخل حتى خرجت، وأنظر تارة أخرى كيف برز جمال بشرتي

الخمرية الريفية الغضة بعد أن تشربت بحُمرة الخجل إلى جانب حمرة الصفعات.

عندما أنهت السيدة وجبتها اختارت ليكتارا لترافقها أثناء خلوتها في معبد آمون، وصرفتني لأعود إلى غرفة الوصيفات اللصيقة بجناح الفرعون. هاجمتني عندها خواطر كثيرة بينما أسير ببطء في الرواق الملكي نحو باب الخروج، (هل استغنوا عن خدماتي إذ علموا أني أعبد آتون؟)، (هل أُعاقَب لهذا الذنب؟)، (أُسجن أم يعيدونني لحقل الكتان؟)، (وهل تتعرض عائلتي للعقاب أيضًا؟). باتت أفكاري تضغط على عقلي إذ أخذت تتوارد دفعة واحدة، وكأن العمال في رأسي يَهوون بمطارقهم على الحبوب في الهاون، كلهم في وقت واحد.

افترشتُ الحصير بين السريرين، وبدأت بذلك الشهيق المزعج الذي يسبق عادة بكاء طويلا، لكن صوت الخادم قاطع طقوس حزني: «ياسمينا، الفرعون ينتظرك في مكتبته». رافقت الخادم وأنا

أجرَّ ساقيَّ اللتين لم تطاوعاني على لقاء المصير. ولجتُ المكتبة بصعوبة بالغة، فكُلي أرتجف. «اجلسي»، قال الفرعون بصوت هادئ، بينما ربتَ بكفه على المقعد الطويل المزخرف الذي يجلس عليه، «جئتِ؟ إذًا أنا فعلًا النداهة الساحرة»، قال الفرعون وكنت قد جلست على المقعد بالقرب منه، فأطلقت ضحكة رنانة دافئة ابتسم الفرعون إثرها.

قرّب مني الفرعون رأسه الخالي إلا من تاجه الملكي، ثم قال هامسًا وكأنه يخشى أن يسمعه أحد جدران الغرفة: «ياسمينا»، حرك عصاه على الأرض في إيماءة للتوتر، ثم تابع بعد زفير مسموع: «كان والدي سعيدًا عندما ترك الناس

ميراثهم من الخرافات القديمة. أنا لا أزال أبدا على عبادة آتون، ولم أعدل عنه إلا لفرط الضغط الذي تعرضت له من العزيز وزوجتي». لم أكن بارعة في الكلام قط، فاخترت أن أشد على كتفه القريب ردًّا عليه.

غاب القرص المضيء وظهر مرات عديدة، وخيط رقيق بين قلبينا يزداد شدة. لم تمضِ حياة القصر رتيبة، فلقاءاتنا المتباعدة كانت بمثابة فيضانات النيل(8)، تُخلف خلفها حقولًا من نور على مد البصر. كان جل حديثنا كلما التقينا صمت رقيق وإيماءات. وإن اخترنا بعض مرة لغة البشر التي يفهمها الجميع عشَّقناها برموزنا الخاصة. «مُذ تحادثنا هنا في المرة الأولى بدأت بتصديق دلالات الألوان التي أشار إليها أسلافنا. في خضرة عينيك حياة»، قال لي الفرعون ذات أمسية، فما كان مني إلا أن وقفت بعد أن غطيت وجهي هامسةً: «وأنا مذ عرفتك سيدي صدقت بوجود النداهة»، فمد عصاه يمنعني من الهروب، وقال وهو الذي حفظ المُزحة: «اصطادتك النداهة، مَن يُحررك مني؟»، ثم أتظاهر بالخوف، ومعًا نضحك.

حدثني الفرعون الشاب بعض حين في أمور الدولة. وكانت شفتاه حينها ترتجفان في نغم شجيّ أشبه بذلك الصادر من الناي عندما تسري فيه

الأنفاس. وقبل أن أهلع عليه، كان دائمًا يطمئنني: «نحن لا نرى إلا جزءًا. لا يمكننا الحكم على تمثال دون النظر لكل زواياه، وجل الأمور كذلك».

مذ سكنت القصر قدم علينا هاتور(9) ست مرات. في المرة الأخيرة غطى الفرعون الشاب عيني بقماش من الحرير الأبيض، ثم مرر على وجهي شيئا ناعمًا دغدغني. «استغرق صنعها سنة كاملة. أعجبتك؟»، قال وقد فكت يداه عقدة القماش ليتسنى لي النظر لمروحة بديعة من ريش النعام الأبيض والبُني، محمولة على مقبض ذهبي نُقش عليه رسم للفرعون الشاب. لوحت بها بصعوبة في الهواء: «أحببتها، أشكرك»، فضرب الفرعون الشاب على صدره في فخر، فرغم قدميه المُتعبتين، كان يتغيب عنا كيهك(10) كله في رحلة إلى صحراء الشرق، يمارس فيها صيد النعام رفقة صديقته العصا التي كان فخورًا برفقتها أبدًا.

ودَّع الفرعون القصر في رحلته الأخيرة مطلع

كيهك. بدا وداعًا مختلفًا؛ إذ اجتمع الخدم والحاشية على الشرفات يصرخون بكلمات الوداع، واختارت السيدة البكاء على مدخل القصر مع أول خيوط القرص المضيء حتى غياب قافلة الفرعون الشاب عن الأفق. عدا عن ذلك، كان يومًا آخر من الأعمال الروتينية في خدمة السيدة، ثم كنت وليكتارا ممددتَيْن على فراشينا نهاية اليوم. «لماذا لا تصطحبني السيدة معها إلى المعبد؟» سألت. «تسألين بعد ست سنين غير كاملة في خدمة السيدة؟!» استهجنت ليكتارا، ثم اعتدلت في جلستها، وفي همس شابَهُ الحذر أجابتني واضعة كفها على صدرها: «لأن سرها عندي». اعتدلتُ في جلستي وقلت باهتمام: «أي سر؟!»، فأفضت لي: «السيدة لا تختلي بنفسها في المعبد، بل تجتمع هناك ببعض الكهنة ورجال الدولة». انتفض قلبي بعنفٍ ليلتها، وكأن مُدنًا تتهاوى في صدري، حتى خلت أنني أسمع صوتًا جنائزيًّا مُزعجًا منعني من سماع بقية الحديث.

هاتور: أحد الشهور المصرية القديمة. ترتيبه الثالث، ويُنسب إلى آلهة العطاء والحب والموسيقى.

كيهك: أحد الشهور المصرية القديمة. ترتيبه الرابع، ومعناه عيد اجتماع الأرواح عند الفراعنة.

كنت أهذي، وأرهقتني كوابيس اليقظة عشرة أيام متتالية. استغنت السيدة عن خدماتي؛ إذ ظنت أن الجنون أصابني، وأرسلت في طلب مَن يصطحبني عائدةً لحقل الكتان. أخذ مني المرض مأخذه فنسيت ترتيب الأوقات والأيام، لكنها كانت ليلة مظلمة تلك التي عاد الفرعون فيها محمولا إلى قصره، ملفوفًا بكثير من الحزن والغموض، وشيء من الضمادات. «الفرعون يهذي باسمك» قال لي أحد الخدم، بينما أسندتني صديقتي ليكتارا.

كان الفرعون نبيلًا حتى في ألمه. رأيت جسده العليل يتلوى لفرط الألم مرات عديدة، بينما يئن ضعيفًا ويشهق متقطعًا، ملصقًا أسنانه العليا بشفته السفلى، مُجنبًا إياي مشقّة السماع. كانت الدموع

تسيل صامتة على خديه. يد تقبض على يدي، والأخرى تقبض شديدًا على صديقته العصا التي اتكأت على طرف فراش الموت تودعه. بقينا على هذه الحال حتى ارتخت قبضته، وعندها غطى النافذةَ التي يرقد جسد الفرعون الشاب قربها صقرٌ أشقر جميل، كأنه وُلِد من خيوط القرص المضيء. أخذ الصقر يغقغق(11)، وكأنما يقول بلسان الطيور: «سيضرب الموت بجناحيه السامين كل مَن يعكر صفو الملك(12)»، ثم سبق سيده إلى الغرب حيث منازل الأموات.

غُدت إلى حقل الكتان كعصفور صغير أَلِف قفصه ويد صاحبه. قضيت الوقت أتبلعم هواء الحقل بصعوبة بالغة. أجلس القرفصاء منذ الفجر عند باب مخدع الفلاحين الخشبي المعتق، وأنثر دموعي مع شيء من الحبوب كلما مر بي طائر، وأناجي نجوم السماء مساءً. فلعل أسطورة البا(13) حقيقة، ولعل أحدهم هو.

هكذا تُركت حتى أبى العالم الآخر إلا أن نجتمع سريعًا قبل انقضاء كيهك. لا أحد يموت حقيقة، وما ارتبط قلبان ليفترقا. إنما حياتنا نحن البشر كيرقات الفراش، ننسلخ من أجسادنا لنطفو أرواحًا في سُمو مهيب.

---

(1) طيبة: إحدى مدن مصر الفرعونية، وهي مدينة الأقصر حاليًا.

(2) آتون: الإله الواحد الأحد.

(3) نحو منازل الأموات: أي نحو الغرب.

(4) آمون: أحد الآلهة الرئيسيين في مصر القديمة.

(5) ليكتارا: اسم مصري قديم يُعطى للفتاة.

(6) العزيز: لقب لوزير الدولة في مصر القديمة.

(7) النداهة: أسطورة ريفية مصرية قديمة لِجنيَّة تظهر في الليالي المظلمة. تنادي الشخص فيصبح مسحورًا يتبع مصدر النداء، ثم يوجد ميتًا.

(8) فيضانات النيل: تحدث مرة واحدة في السنة، وتجعل الأرض خصبة.

(9) هاتور: أحد الشهور المصرية القديمة. ترتيبه الثالث، ويُنسب إلى آلهة العطاء والحب والموسيقى.

(10) كيهك: أحد الشهور المصرية القديمة. ترتيبه الرابع، ومعناه عيد اجتماع الأرواح عند الفراعنة.

(11) الغقغقة: صوت الصقر الرقيق.

(12) «سيضرب الموت بجناحيه السامّين كل مَن يعكر صفو الملك»: عبارة منقوشة على أحد جدران مقبرة توت عنخ آمون.

(13) أسطورة البا: «البا»؛ هي الروح في عقيدة مصر القديمة، والأسطورة تنص على أن روح الميت تتحول إلى طير أو نجم.

درب الشمس

عمرو حسين

لم يكن أحد يعلم ما هو سر «تايو».

ذلك الشاب الذي لا نراه بالأيام، يجلس في منزله وحيدًا دون زوجة أو صديق أو جليس، يظهر فجأة في السوق يبتاع القليل مما يحتاجه، أو في المعبد شاردًا دون التعبد لإله من بين مئات الآلهة التي نتعبد لها.

لم يكن أي من سكان مدينتنا يعبأ بهذا الشاب قبل أن يظهر سِحره.

لم يحوّل العصا إلى ثعبان، أو يُخرِج المرض من الأجساد، أو حتى يتحكم في الأشياء عن بُعد، لكن كان يعلم الكثير عن ماضينا، الكثير والكثير مما نريد أن نُخفي، إن سحر تايو كان يتمثل في معرفته بالماضي، معرفته كانت كاشفة لنا، كنا نتخيله وكأنه ينظر لنا كعرايا، دون أن نحتمي بعائلتنا أو علمنا أو آلهتنا.

بدأ الأمر ذات يومٍ جلس فيه جمع من أبناء المدينة ليلًا يتسامرون على ضوء النيران، وأمامهم تراقصت ظلالهم التي خلقتها هذه النار على جدران معبد حتشبسوت البعيدة، أحد الشباب حاول أن يُخرِج تايو من عزلته ويأتي به بين أقرانه، لا أعرف هل كان مقصد هذا الشاب خيرًا أم كان مقصده معرفة ما يخبئه هذا الصامت دومًا وكشف مستوره.

ظل تايو كعادته صامتًا طوال الجلسة، يضحك هذا ويحكي هذا ويتنمر هذا، يتحدثون عن الكهنة والآلهة والملك والملكة، يتحدثون عن النيل والزراعة والبنيان الشاهق الذي يقوم هنا وهناك، مكتوب عليه ما يريده الملك أن يُكتَب دون أخبار باقي الناس، بينما كان السكوت هو حليف تايو، إلى أن وقع في الخطأ وتفوّه بكلمة، كانت هي المفتاح الأول لباقي الكلمات، فقد كان الجميع يتحدث عن الزوجة التي وجدوا جثتها مربوطة إلى جثث أطفالها، يطفون جميعًا فوق سطح النيل. قال تايو:

«زوجها مَن فعل ذلك».

كيف عرفت يا تايو؟ هل تتوقع أم تعلم؟ ما دليلك؟

أَلَحَّ الحضور على إخراج المعلومات من تايو لكنه لم يُجِب. دقائق وكان خارج الجمع وفي طريقه إلى منزله. لكن التساؤلات لم تتوقف حوله، خاصة أنه قال جملته بثبات وهدوء العالم، ولم يخطئ أيٌّ ممن سمعوه نبرة ثقته فيما يقول، حتى وإن كثرت الأسئلة وزادت الشكوك، نبرته كانت نبرة صاحب معرفة.

وتوالت كلمات تايو، يحكي ذكريات وذكريات وذكريات، عن هذا المعبد وهذه المرأة وهذا العجوز، ذكريات تتخطى عُمره بسنين وسنين، كأن إلهًا حفر في عقله ذكريات هذه المدينة كلها، وكنا نصدقه؛ لأنه لم يطلب من أحد أن يفعل، عندما كان يكذبه أحد كان يصمت ويتركه ويعود إلى منزله، أو ينهض سائرًا وحيدًا في الصحراء، كان بائسًا ويائسًا وغير

طالب لأي سلطة أو شهرة أو مال، ذات يوم جاءته امرأة وطلبت منه أن يقول لها كل ما يعرفه عن تاريخ زوجها، رفض ولم يَبُح بكلمة، كما هدده أحدهم بالقتل علانية لو أخبر أحدًا عن ماضيه، فأكد له تايو أنه لا مصلحة لديه بأن ينشر ماضي الناس، إنه يفعل ذلك فقط إن استدعى الأمر، ومرة أخرى عرض عليه أحد الكهنة أن يعمل تحت إمرته، رفض تايو، وزاد في رفضه عندما أصر الكاهن، فما كان من الكاهن إلا أن نعت تايو بالممسوس، ولم يَرُد تايو، كنت وقتها أقول بيني وبين نفسي: «ربما كان تايو ممسوسًا بالفعل!»، لكني كيف أصدق في هذا وأنا الكاتب الذي يلجأ إليَّ الناس كي أعطيَهم المشورة والنصيحة المعتمدة على العقل والمنطق، لا السحر والدجل والمَس، حتى جاء إليَّ تايو ذات يوم، وعرفت منه الحقيقة.

جاءني تايو في إحدى ليالي الشتاء، وقت أن كانت الشمس تميل للغروب، بعدما قطعت الطريق في دربها من أقصى المدينة لأقصاها، حتى تحتفي

وراء الجبل القائم خلف معبد حتشبسوت، كان تايو في طور الغروب هو الآخر، انحنى ظهره واسود ما تحت عينيه، وأحاط جسده الذي أصبح نحيلًا بطبقات عديدة من أثواب الكتان، ساءت حالته على الرغم من وصول مولوده إلى الدنيا منذ شهر تقريبًا، بعدما تزوج بين يوم وليلة دون احتفالات. طلب الدخول إلى منزلي فرحبت به، وأمام النيران التي أشعلتها للتدفئة بدأ يحكي.

ـ آسف أيها الكاتب لإزعاجك، لكني لا أجد مَن أتحدث إليه، عقلي يكاد أن ينفجر، ولا أريده أن ينفجر قبل أن أبوح بما استقر داخله طيلة هذه السنوات، لا، ليست طيلة هذه السنوات فحسب، بل السنوات التي سبقتها والتي سبقتها.

لم أفهم آخر جملة قالها، بدت لي مُبهمة، ولكنه بدا لي مهمومًا تعيسًا.

ـ لا أريد منك نصيحة أو توجيهًا، فقط أريدك مُستمعًا، لعلك تدافع عني إذا ما أقدمت على فعلتي.

التزمت السكوت، فهذه هي المرة الأولى التي أرى فيها تايو يتحدث ويُطيل في الكلام، ولم أُرِد أن أقاطعه ولو حتى بكلمة موافقة على طلبه، اكتفيت بإيماءة خفيفة كي يبدأ.

ـ لعلك لا تعرف أيها الكاتب لماذا لم أتزوج طيلة هذه السنوات، كنت أرفض أن تشاركني امرأة ألمي وعذابي اليومي، كنت أخاف أن أُنجِب طفلًا يرث مأساتي، حتى قابلت «حمت» زوجتي، ولم أستطع أن أقاوم سِحرها.

كان يتحدث عن حمت وهو يبتسم، تقريبًا هذه هي المرة الأولى التي أراه يبتسم فيها، لكن ابتسامته تحولت إلى تجهم وقلق، وزاغت عيناه.

ـ لعلك تفاجأت كالجميع عندما تزوجت، لقد حدث الأمر سريعًا، رأيتها لأول مرة في المعبد، كما تعلم هي تميل للإله حتحور إله الخصوبة والجنس، تقدمت يومها ووقفت بجانبها وقلت لها جملة واحدة «ألم تخلق الآلهة الغرائز ومُتع الحياة لينعم

بها كل إنسان؟»، نظرتْ إليَّ حينها ويبدو أنها تعرفت عليَّ، سُمعتي كانت تسبقني، فبجانب سُمعتي عن معرفة الماضي بين الرجال، كانت سُمعة موازية تسير عني بين أوساط النساء، أنا هذا الرجل الذي يعرف الطرق الألف في ممارسة العلاقة الجنسية.

لم أستطع الاستمرار في الصمت بعد الجملة الأخيرة.

ـ وهل كنت تعرف الألف طريقة بالفعل؟

قُلتُها بحماس لا يناسب وقار كاتب، ولا يناسب رجلًا في سني الكبيرة، لكنه لم يتوقف عند طريقتي، ربما لأنه يعرف أن ما قاله كان شيئًا غريبًا ويستحق التساؤل.

ـ نعم كنت أعرفها. وكانت هذه هي الكلمة التي أبدأ بها تعارفي مع أي فتاة، حتى انتشر الأمر بينهن، وأصبحت لا أقولها، فكلهن يعرفنها.

ـ إذن ما هو الجديد لدى حمت ولم يكن موجودًا

في باقي أقرانها؟

ـ لا شيء. وهذا ما دفع بي إلى الجنون، لا شيء جديد، هي جميلة ولطيفة وودودة وصديقة، وكل الصفات الجيدة التي يمكن أن أجدها في فتيات كُثر، لكني أحببتها هي، هذا الشعور لم أكن قد اختبرته من قبل.

ـ كانت مُقدّرَة لك فما المشكلة؟

ـ أنني لا أريد أن أتزوج وأنجب، مأساتي سيتوارثها الابن الذي سأنجبه.

ـ ما زلت لا أفهم يا بني.

اعتدل تايو في جلسته كأنه سيلقي خطابًا ملكيًّا.

ـ هل تعرف ما هي قوتي السحرية أيها الكاتب؟ كيف أعرف ماضي جميع الناس؟ الأمر أنني عندما وُلِدتُ وجدت عقلي كغرفة كبيرة تحتفظ بذكريات أبي وجدي وجميع أجدادي، كل كبيرة وصغيرة احتفظوا بها في ذاكرتهم انتقلت إليّ، لم أستوعب

هذا من البداية، لكن عقلي بدأ يقفز إليّ بالعديد من الذكريات التي لا تخصني، كلما أرى شيئًا أستدعي كل ما رآه أجدادي عنه، كلما أرى شخصًا يبادر عقلي باسترجاع جميع الحوارات التي قالها هذا الشخص مع أبي أو جدي، حتى إنني أرى خيالات من الماضي السحيق، السحيق جدًا، عندما أرى كهفًا أرى في عقلي رجلًا يشبهنا إلى حدٍّ كبير، يقف هناك على يديه وقدميه، يأكل من الفريسة الميتة أمامه وما زالت مخضبة بدمائها، أرى ماضيًا لا أستطيع تفسيره، يكاد عقلي يفتك بي، مَن هؤلاء وماذا كانوا يفعلون؟ الأمر فوق استطاعتي.

توقف تايو عن الحديث وسمعتُ لأول مرة صوت زفيري وهو يخرج ثقيلًا غير مستوعب لما أسمعه.

ـ هل ورثت ذاكرة كل أجدادك؟ جميعهم؟

ـ نعم.

ـ هذا جنون! لقد تخطيت الستين من عمري وما زلت أعيش على الحنين والذكريات التي أحملها في

حياتي فقط، فكيف لك أن تعيش مع ذكريات مئات ومئات من أناس آخرين غيرك، لا أستطيع التخيل.

ـ ولن تستطيع. لقد حاولت الانتحار مرارًا، لكني جبان، لم أستطع، خاصة أن محاولاتي للانتحار تقترن دائمًا بذكريات أجدادي عن الانتحار، فمنهم مَن لم يتحمل البقاء في هذه اللعنة، أحمل ذكريات لرجال يقذفون بأنفسهم من فوق الجبل، يغرقون بأجسادهم تحت الماء، يُلقون بكيانهم داخل النيران، أرى هذه المشاهد فلا أجرؤ على القيام بمثلها.

ـ لهذا لم تكن تريد الزواج والإنجاب!

ـ حاولت الابتعاد، لكني أحببتها، لقد كان عقلي يحتفظ بالذكريات جميعها، عن الحب والزواج والخيانة، كل شيء، لكني لم أشعر بهذا الشعور قط، الذاكرة تعطيك جزءًا من الحقيقة، لكن الشعور بهذه الذكريات يعطيك الحقيقة كاملة، ولأول مرة أشعر بالحب، فيضان جارف ملأ روحي، فتماديت معه وتركت له جسدي كي يحمله ويسير به كيفما أراد،

ولم أفِق إلا مع انتفاخ بطن حمت، ثم إنجاب ابننا «نِس».

ـ ما تحكيه يا بني ليس سِحرًا ولا مأساة، بل معجزة.

ـ سِحر بالنسبة للناس، معجزة بالنسبة للمؤمنين والعارفين مثلك، مأساة بالنسبة لي. أنا صاحب هذا الحِمل، أنا مَن يشعر به، أنا مَن يحمل طفلي كل يوم، وأصعد به أعلى الجبل الملاصق لمعبد حتشبسوت، أنظر إلى المدينة، وأتطلع إلى الشمس التي تسير في دربها نحوي، وأفكر: هل أحتفظ بهذا الطفل الذي سيرث كل ذكرياتي، وأزيد عليه المأساة، أم أتركه يفلت من بين يدي، ويهوى للأسفل، حيث يستريح من عذاب هذه الحياة؟

اتسعت حدقتا عينيّ عندما سمعت ما قاله تايو، ولأول مرة أشعر بمصيبته، وبأنفاسي متلاحقة سريعة، وبعرقي ينهمر، ماذا أقول له؟ بماذا أنصحه؟

لم ينتظر تايو ردي؛ فقد كان يعرف استحالة الحصول على مشورة، وكما قال في بداية حديثه معي، إنه أتى فقط كي يجد مني مُستمعًا لا ناصحًا، وغادر تايو إلى منزله، وبقيت في منزلي أفكر، بماذا أنصحه.

وتمر الأيام، وأنا أراقبه عن بُعد، أو هكذا كنت أظن، فبالتأكيد كان يتوقع مني هذا، كان يصعد لقمّة الجبل حاملًا الطفل يوميًّا ويقف هناك طويلًا قبل أن يحمله ويعود أدراجه إلى منزله، وظللت أسأل نفسي حتى كتابة هذه السطور على البردية التي قررت أن أسجل فيها ما حدث، هل سيأتي اليوم الذي يترك فيه تايو ابنه ينفلت من بين ذراعيه؟!

علمٌ يندثر من بعدِنا

رامي وفا

١٤ فبراير ٢٠٠٧

يظهر مانشيت رئيسي في الصحف: «وفاة رئيس هيئة الآثار المصرية الدكتور كامل البدري إثر تعرضه لحُمَّى لازمته أكثر من أسبوع، عجز الأطباء عن فهم أسبابها، من المعروف أن الدكتور كامل كان في صحة جيدة، وهو أحد أهم الباحثين في التاريخ الفرعوني، وصاحب اكتشافات عظيمة في هذا المجال، خالص التعازي لأسرته والمقربين منه».

١٣٢٠ قبل الميلاد

الملك توت عنخ آمون مُستندًا على عكازيه في اجتماع مع كهنته في طيبة، يقف الملك البالغ من العمر خمسة عشر عامًا، ينظر إلى كهنته ووزرائه مُباغتًا إياهم بسؤال: ما الذي يمنح أي حضارة الخلود؟

ينظر الكهنة والوزراء لبعضهم البعض، يُكرر توت عنخ آمون سؤاله، يُجيب الوزير خيرخيرو رع آي: أن تترك الحضارة ثرواتٍ هائلة تكفي لمئات السنين فيعيش في فضلِها الأولاد والأحفاد.

توت عنخ آمون: الثروات مهما بلغ حجمُها ستنتهي: وعندها ستأتي أجيال لا تجد للثروات أثرًا وبهذا لا تعرف شيئًا عنَّا وتندثر الحضارة.

يجيب كبير المعماريين: المعمار الخالد يخلّد الحضارة، نحن نعرف مَن سبقونا عن طريق بناياتهم، ورسومهم على تلك البنايات، لو استطعنا بناء أعمال تقاوم ظروف الطبيعة لآلاف السنين، لخلدت حضارتنا وعرفَنا كل مَن بعدنا.

توت عنخ آمون: ماذا لو استطاع أحفادنا بعد مئات السنين أن يبنوا أفضل من هذا، ماذا لو توصلوا بعلوم حديثة إلى بنايات أعلى وأكثر صمودًا للزمن، سنصبح في أعينهم مجرد بُناة ماهرين.. وحينها لن يبقى لحضارتنا الأثر المُبتغى.

يُجيب أحد الكهنة: الفن.

توت عنخ آمون: أي نوع من الفنون؟

الكاهن: الرسم والنحت وقصص الانتصارات والبطولات العظيمة.. هذا ما يُخلِّد الحضارات.

توت عنخ آمون: الفن مُبهر.. وهو لا شك أحد عوامل الخلود.. لكنه لا يضمنها، عندما ترى منحوتةً عظيمة لأول مرة تندهش، في المرة الثانية تشعر بالإعجاب، في الثالثة تحاول أن تفسّر سر الفن وتقوم بتحليله، وفي المرة المائة أو الألف بعدما تفهم سِرّه لن تبالي به ثانيةً.

ينظر الكهنة والوزراء لبعضهم البعض وتعلو الحيرة وجوههم ثم يسأل كبير الكهنة: إذن ما الذي يضمن لأي حضارة الخلود؟ منك نتعلم ملكنا العظيم.

يبدو الملك شاردًا ومُفكرًا، يتحرك ببطء حتى يصل إلى كُرسيه، يساعده حارسه الشخصي في

الجلوس، يعتدل في جلسته، ثم يطيل النظر إليهم ويجيب: الغموض.. الغموض هو ما يمنح الحضارة خلودها.

٢٥ فبراير ٢٠٠٧

في مكتب السيد وزير الدولة لشئون الآثار المصرية، يحضر الدكتور علي صالح نائب رئيس هيئة الآثار السابق الدكتور كامل البدري، وكما كان يتوقع دكتور علي أن يُعرض عليه تولي منصب سابقِه، ما لم يكن يتوقعه أن يجد لديه الشجاعة أن يرفض المنصب رغم إلحاح الوزير واندهاشه، صحيح أن السيد الوزير لم يأخذ رفضه على محمل الجد بعد، لكنها خطوة أولى جيدة.

ما ساءه حقًّا أنه اضطُر لأن يبرر لسيادتِه أسباب رفضه غير المقنعة بالطبع لا للسيد الوزير ولا لزوجته وأولاده، لكن لا يهم ما دام تولّي هذا المنصب مرتبطًا بإكمال مشروع دكتور كامل في الكشف عن أسباب وفاة الملك الفرعوني توت عنخ

آمون، فليكمله آخر.. وليتحمل تبعات ذلك، عارض دكتور علي المشروع منذ البداية، لكن دكتور كامل أصر.

كان تمسكه بالمشروع عظيمًا، كان لديه اعتقاد بأن ما تردد عن اغتيال توت عنخ آمون على يد وزيره (آي) هو محض افتراء تاريخي، نشأ هذا الافتراض بعد اكتشاف مقبرة الملك، فقد اكتشفوا أنه تُوفي في سن الثامنة عشرة فقط، ووجدوا كسرًا في ساقِه، وثقبًا في الرأس، وترددت الأقاويل أنها أول عملية اغتيال سياسي في التاريخ، تحديدًا لأن وزيره آي تزوج أرملة الملك بعد وفاتِه، ثم تولى الحكم. كامل كان مع الظن أن وفاة الملك كانت طبيعية، تحديدًا مع وجود علامات توضح أن تكوينه الجسماني كان ضعيفًا بالأساس، فقد وجدوا عددًا كبيرًا من العصيان في مقبرته.. أكبر الظن أنه كان يتعكَّز عليها، كما أن رسومه وهو يرمي السهام على العجلات الحربية كانت كلها وهو جالس على عكس الشائع وقتها من الرمي واقفًا، وكان كامل بدأ

بالفعل في إجراءات شراء جهاز بمئات الآلاف لإعادة فحص جثمان الملك، والوصول لنتائج أكثر تأكيدًا.

قبل الوفاة بأسبوع سأله علي ألا يطرأ على ذهنه من حين لآخر خطورة العمل بهذا المشروع، لأنه من المعروف لديهما أن اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون ارتبط بكثير من حوادث الموت الغامضة لكل مَن شارك في الاكتشاف العظيم للمقبرة (عام ١٩٢٢) أكثر من عشرين حالة وفاة خلال سبعة أعوام بعد الاكتشاف، وبالطبع استخف دكتور كامل به، وتعجب كيف لمُثقف عقلاني مثل دكتور علي أن يصدق خرافات لا يرددها سوى الجهلة وأنصاف المتعلمين، أيمكن لعاقل في عصرنا هذا أن يصدق ما يُسمى لعنة الفراعنة؟!

هذا اليوم أكد كامل لعلي أنه لأكثر من أربعين عامًا يعمل في التنقيب عن الآثار ولم يُصبه مكروه، وأن ما أطلق عليه الناس حوادث وفاة غامضة.. يمكن أن تقع كلها في إطار المصادفات، أو في إطار

التأثير النفسي الذي أطلقته أول حالة وفاة لواحد من مُكتشفي المقبرة. «بالفعل يمكن أن تصيبك لعنة الفراعنة.. فقط إذا آمنت بأن هناك هراءً ما يُسمى لعنة الفراعنة»، كان هذا آخر ما سمعه علي من صديقه ورئيسه في العمل الدكتور كامل البدري.

١٣٢٠ قبل الميلاد

الكاهن الأكبر: كيف للغموض أن يضمن خلود حضارة أيها الملك؟

توت عنخ آمون: أن تصبح الحضارة سرًّا، أن تصبح لغزًا عصيًّا على الفهم، هو ما يضمن استمرار انبهار الناس بها وحديثهم عنها، يجب أن تُحاط حضارتنا بقدر معقول من الغموض يضمن معه استمرار فضول كل الأجيال من بعدنا لاكتشافها، غموض يحقق قدرًا من الاكتشاف لكن لا يحقق الفهم الكامل في الوقت ذاته.. وهذه هي المعادلة الصعبة. أمِنكُم مَن لديه فكرة تساعد على تحقيق هذا؟ أراك صامتًا يا عمدة طيبة.. ما قولك؟

عمدة طيبة: أتفق مع قولك يا مولاي، وأرى سبيلًا لتحقيق المراد.

توت عنخ آمون: إذن.. حدثني عما يدور في خَلَدك.

عمدة طيبة: أولًا يجب أن نصل لقدر من المعرفة لا يستطيع خلفاؤنا الوصول إليها.

توت عنخ آمون: وكيف لنا هذا؟ لا بد أن تتقدم العلوم من بعدِنا، ولا سبيل لدينا لإيقاف تيار العلم.

عمدة طيبة: لا.. هناك سبيل، أن نصل لعلمٍ يندثر من بعدِنا تمامًا.

لحظة صمت، تعلو الحيرة الوجوه، يشير إليه الملك أن يُكمل حديثه.

عمدة طيبة: سأوضح الأمر أكثر يا مولاي.. للإنسان شِقان، شقٌّ روحاني وآخر مادي، ومن العسير أن يتقدَّم الشقان معًا، كلما آمن الإنسان بالمادي يضعف اتصاله الروحاني، يغتر بما وصل إليه

من علم، ويعتقد أنه يستطيع أن يصل لكل المعرفة من خلال عقله الصغير، يتجاهل روحه، يُهمِّش حدسه، يتخلَّى عن قدراته الروحانية العظيمة، أولادنا في المدارس الآن لا يعرفون شيئًا مما نعرف عن الروح والسحر والكرامات والمعجزات الإلهية، وفي خلال قرنين أو ثلاثة على الأكثر.. سيضعف الإيمان بكل هذا تدريجيًّا، وبعد ألف عام سيُعتقد أن تلك العلوم هي مَحض خرافات، وحينها سيحاول أحفادُنا تفسير ما هو روحاني تفسيرًا ماديًّا لأنهم لن يملكوا سوى هذا الشكل من التفسير، وإذا حاول الإنسان تفسير الروحاني بالماديّ فلا بد أن يعجز، هذا العجز سيجعله أسيرًا لفضوله، وسيحقق الغموض المُبتغى.

تظهر الدهشة على الوجوه، يحدقون جميعًا بعمدة طيبة وهو يبتسم ابتسامَة هادئة وديعة، يلوذ الجميع بالصمت منتظرين رد الملك الذي يبدو مُطرِقًا أكثر مما كان عليه، يطول الصمت لثلاث دقائق كاملة، ثم يرفع توت عنخ آمون عينيه إليهم

مُحركًا رأسه بالإيجاب قائلًا بهدوء: علمٌ يندثر من بعدنا.

٢١ فبراير ٢٠١٧

يجلس وزير الآثار في منزل السيدة إنعام حسني أرملة دكتور كامل، يحتسي قهوته، يتساءل عن أحوال الأسرة، وبعد محاولات ينجح في أن يجعل السيدة إنعام تتحدث بحرية أكثر عن الأسبوع الأخير في حياة زوجها، كان ما ينتظره ويتوقعه أن تتأكد فكرته بأن ظنون علي صالح هي محض خرافات، وأن وفاة صديقه سببت له قدرًا من التوتر أثر على فكرِه، لكن ما حكته السيدة إنعام خالف توقعاته، حكت له عن بداية إصابة كامل بحُمى ووصول درجة حرارته للأربعين، ثم انخفاضها بالعلاج ومتابعة الأطباء، ثم عودة ارتفاعها مرة أخرى بشكل حيَّر الأطباء، وظلت هكذا طوال الأسبوع من ارتفاع لانخفاض لارتفاع آخر.

حكت له عن معاناة كامل خلال الأسبوع الأخير

من بعض نوبات الهذيان، ذكرت له حكاية اقشعر لها جسده، حكت أنه استيقظ من النوم في إحدى الليالي مفزوعًا كأنه أفاق على كابوس مروع، وعندما سألته قال لها: «سيذبح الموت بجناحيه كل مَن يبدد سلام مرقد فرعون»، ثم واصل نومَه، بالطبع عرف السيد الوزير أن هذه العبارة هي الترجمة العربية لكتابة وجدها مكتشفو مقبرة توت عنخ آمون على أحد ألواح المقبرة، لكن لم يُثر فزع السيدة إنعام إلا يوم الوفاة صباحًا، كان دكتور كامل في حالٍ أفضل من ذي قبل، وظهر وكأنه تعافى بدنيًّا، لكن حينما سألته زوجته عن أحواله قال لها: «أشعر بجحيم في داخلي»، وبعد ساعات فارقت الروح الجسد.

١٣٢٣ قبل الميلاد

توت عنخ آمون في مقبرته مع مُشرف بناء المقبرة وعمدة طيبة وكبير الكهنة وحارس المقبرة.

توت عنخ آمون. يجب أن تنتهي كل التحضيرات

خلال أيام.

عمدة طيبة: مولاي.. ما زلت في عامك الثامن عشر، أمدت الآلهة في عُمرك، لمَ العجلة؟ ولمَ الإصرار على بناء مقبرة صغيرة كهذه؟ يمكن بمنحنا المزيد من الوقت بناء مقبرة أكبر تليق بعظمتك.

توت عنخ آمون (متحركًا بعكازيه) مملوءًا بالشجن: أشعر به قريبًا.. قريبًا جدًّا، أراه يحوم حولي، ينظر إليَّ بعيون تملؤها نية الغدر، في طاعته تحدٌّ لي، في خضوعِه غل وكراهية، لم أحقق انتصاراتٍ عظيمة أُخلّد بها، لست مثلًا كوالدي إخناتون الذي حاول توحيد الآلهة، لم أمتلك حتى الشجاعة لأسير على خُطاه في عبادة الإله الأوحد آتون، لست مثلًا كزوجة والدي وحماتي الملكة نفرتيتي الذي يحاول بعض الكهنة طمس تاريخها، إذا لم تستطع هذه المقبرة أن تمنحني الخلود، فلن يكون لي ذكر في الحياة الثانية، ما نفعله الآن هو التاريخ الذي سأُذكر به، بدونه لا يوجد توت عنخ

آمون، يومًا ما سيكتشف الأحفاد مقبرتي، لكن إلى أن يأتي هذا اليوم، علينا أن نحيط الأمر بأكبر قدر من الغموض، وحتى بعد اكتشافها، لا بد أن يظل الغموض قائمًا، سأضع في مقبرتي هذه كل ثرواتي وثروات والدي، لكنني لن أقبل المساس بها أو بجثماني، ستحل لعنتي على كل مَن يُقلق مرقدي.

حارس المقبرة: إنه أنا الذي يصد لصوص المقبرة بلهيب الصحراء، أنا حامي مقبرتك يا مولاي.

توت عنخ آمون: قد علمتم أهمية هذه المقبرة، أهميتها لتاريخي وتاريخ الأسرة الثامنة عشرة، أوصيكم بنقل جثمان الملكة نفرتيتي إلى مقبرتي، أريدها بجواري، لم يبقَ الكثير لي في الحياة الأولى، يا عمدة طيبة.. أحضر السحرة الذين سيُحصنون المقبرة، علينا الانتهاء خلال أيام، الموت الغلول لن يمنحني فرصة أطول للبقاء، فأسرعوا.. أسرعوا.

٤ نوفمبر ١٩٢٢ ـ الثانية ظهرًا

هوارد كارتر مُكتشف المقبرة بصحبة اللورد

كارنارفون، وليدي إيفيلين هيربرت وصاحب السعادة عبد الحليم باشا سليمان وزير الأشغال العامة وغيرهم، يحضرون جميعًا لمشاهدة مراسم فتح المقبرة.

١٢ نوفمبر ١٩٢٢ـ القاهرة

يسمع هوارد كارتر استغاثة عصفوره في شُرفة الفندق، يتحرك إليه مسرعًا، ليجد ثعبانًا يلدغه حتى مات.

٥ إبريل ١٩٢٣ـ القاهرة

اللورد كارنارفون (ممول عملية كشف المقبرة) بعد إصابته بحمى استمرت اثني عشر يومًا: أشعر بجحيم في داخلي. وفاة اللورد كارنارفون بحُمى غامضة أمس هذا اليوم، يُذكر أن الكهرباء انقطعت عن القاهرة بأكملها ليلة الوفاة.

٥ إبريل ١٩٢٣ ـ إنجلترا

وفاة كلب اللورد كارنارفون بعد حالة نباح

غامضة استمرت لساعات.

٧ إبريل ١٩٢٣

تُوفي عالم الآثار الأمريكي آرثر ميس الذي شارك كارتر في اكتشاف المقبرة بعد أن سقط في إغماءة طويلة ولم يعرف الأطباء السبب.

١٥ يونيو ١٩٢٣

وفاة المليونير الأمريكي جاي جولد صديق اللورد كارنارفون بعد حضوره للقاهرة لمشاهدة المقبرة، تُوفي بعد إصابته بالحمى واحتار الأطباء في سبب الوفاة، وقد ترك رسالة أخيرة مكتوبًا فيها: «حلّت لعنة الفراعنة!».

١٢ أغسطس ١٩٢٣

وفاة أرشيبالد دوجلاس (أول مَن فك لفائف توت عنخ آمون في مقبرته) بشكل غامض بعد عودته لإنجلترا.

٥ سبتمبر ١٩٢٣

وفاة جويل وول رجل الصناعة البريطاني إثر حُمى شديدة غامضة بعد مشاهدة المقبرة بأيام.

مايو ١٩٢٥

وفاة مفتش الآثار المصري (محمد إبراهيم) الذي أجبره المسئولون آنذاك على إرسال بعض كنوز الفراعنة لتُعرض في متاحف باريس رغم معارضته لذلك، وبعد ذلك بأيام دهسته سيارة أثناء عبوره الشارع.

مارس ١٩٢٩

تتوفى زوجة اللورد كارنارفون نتيجة لدغة حشرة، بعدها تُوفي سكرتير اللورد كارنارفون بالسكتة القلبية، وعندما علم والده بالخبر انتحر قفزًا من الطابق السابع، وفي جنازته دهس الحصانُ الذي كان يجر التابوت طفلًا صغيرًا.

١٣٢٣ قبل الميلاد

توت عنخ آمون يقف مُشاهِدًا مقبرته التي

أوشكت على الانتهاء، يُعطي كهنته التعليمات الأخيرة، يتحرك حارس المقبرة ليكتب على تمثاله المسحور: «إنه أنا الذي يصد لصوص المقبرة بلهيب الصحراء، أنا حامي مقبرة توت عنخ آمون». يطلب توت عنخ آمون من الحارس إحضار لوح رخامي كبير وقلَم، ينظر إلى اللوح بابتسامة لا تخلو من الحُزن، يُمسك القلم ويكتب عليه بخط واضح: «سيذبح الموت بجناحيه كل مَن يُبدد سلام مرقد فرعون».

لا مكان

د. عمرو البدالي

لم أكن يومًا متوقعًا ما يحدث الآن.. ضفدع صغير نما وترعرع بجانب الشجرة المباركة بالنيل.. هكذا سميناها وأقراني.. كنا نلعب ونلهو بجوارها ونقفز بالمياه ليلا نهارا ووجباتنا تُقدم لنا بجوارها من الذباب الطازج والديدان الصغيرة.

أخبرني والدي ذات مرة بأننا ننتمي إلى مجموعة الفقاريّات؛ وهي نفس المجموعة التي تضمُّ الأسماك والزواحف والطيور، وكذلك البشر، أولئك المتجبرون الضخام.

حياة لاهية ممتلئة بالحرية والسعادة.

وبمرور الأيام تغير كل شيء.. نضجت وتفرقنا كل لعمله الدءوب للبحث عن الرزق والطعام.

ولكننا حافظنا بعض الشيء على لقائنا ولو مرة واحدة بالشهر عند الشجرة المباركة.

كنت مختلفًا عن أقراني كثيرًا.. كثير الشرود، متأملًا، محاولًا استكشاف ذلك العالم الغريب.

مصر الفرعونية العظيمة.. هذا ما عرفته من التسكع الخفي بدروب العاصمة المطلة على النيل.. وصراع مرير بين اثنين لا ينتهي.. أحدهما يُدعى موسى النبي، والآخر هو فرعون ملك البلاد.. قفزت ذات مرة داخل ذلك المعبد المنزوي بجوانب العاصمة وتلصصت على الكاهن الأكبر باجتماعه السري على أضواء الشموع.

ـ علينا أن ندعم فرعون إلى أبعد الحدود.. إن صدق الناس موسى فسننتهي، وتنعدم مصالحنا للأبد.

ـ سُحقا لهؤلاء اليهود الرعاة.

ـ مجموعة من العبيد يُناطحون أسيادهم! يا للمهزلة!

ـ سنخرج إلى الشعب ونخبرهم بأن تلك المصائب

المتوالية ما هي إلا غضب من الإله آمون رع لتلك الأفعال المسيئة لفرعون.

ـ أغلب الشعب يعتقد بأن الإله هو فرعون يا كبير الكهنة.

ـ لا تكن غبيًا.. أخبرناهم مرارًا وتكرارًا بأن آمون رع يبارك فرعون ملكًا ونائبًا عنه على مصر.

ـ أنا خائف.. المصريون يعتقدون بأن موسى على حق وأن فرعون ظالم فجور.

ـ خسئت.. لن نسمح بذلك ما حيينا.

وانخرط الجميع في التراشق بالأفكار والحلول لتلك الأزمة الراهنة.

لم أهتم كثيرا لما استمعت إليه، على الأقل بذلك اليوم، فقد كنت أبحث عن طعام لذيذ داخل المعبد بعيدًا عن تلك الحشرات المنتشرة بشوارع العاصمة.

قفزت بعيدًا عنهم فوقعت بجوار بعض أوراق البردي البالية يقرؤها رجل لا يشاركهم هذه الجلسة

المغلقة.. اخترقت كلماته أذني بصوته المبحوح الموشك على البكاء.

«مصر صورة للسماوات ويسكن الكون إله هنا في قدس معبدها.. لكن الإله سوف يهجرها، ويعود إلي السماء، ويرتحل من هذا البلد مقر الروحانية.. ستصبح مصر مهجورة، موحشة، محرومة من وجود الإله، يحتلها الدخلاء.. سيُضحي هذا البلد مليئًا بالجثث والمآتم.

والنيل المقدس سوف تخضبه الدماء، وستفيض مياهه مُحملة بالقيح.. ستُضحي مصر أرملة، فكل صوت مقدس سيجبر على الصمت.. وتفضل الظلمة على النور، ولن ترتفع عين إلى السماء.. سيدمغ الصالح بالبلاهة، وسيكرم الفاسق أنه حكيم.. وسينظر للأحمق أنه شجاع، وسيعتبر الفاسد من أهل الخير.. لن يبقى شيء يروى عنها إلا على شواهد القبور القديمة.. سيتعب الناس من الحياة، ويكفون عن رؤية الكون كشيء جدير بالإعجاب المقدس.

ولسوف تصبح الروحانية، التي هي أعظم هِبات الإله مهددة بالفناء».

متون هرمس

القرن الثاني الميلادي

نهر الكاهن الأكبر ذلك الرجل فجأة..

ـ فلتُلقِ تلك المتون ولتذهب للجحيم.

ـ ولكن أغلبها يتحقق أيها الكاهن.. وإن ذهبت مصر فأين تمارسون طقوسكم وتعيشون تلك الحياة الرغدة؟

ـ لن تذهب.. لن تذهب.

قالها والتحدي بعينيه وقفزت بعدها بعيدًا عن المعبد عائدًا لتلك الشجرة المباركة صامتًا بقلب مقبوض مما سمعت.. كل ما يدور ببالي بهذه اللحظات هو تلك الذكريات التي أعشقها بذلك المكان الذي ولدت وترعرعت فيه.

مرت أيام وأيام متوترًا مُشرفًا على الاكتئاب الحاد.. أيُعقل أن يذهب كل شيء للهباء كما جاء بهذه الأوراق البالية؟

أنظر إلى أهلي وأقراني حزينًا وأستمع إلى نقيقهم مُتحسرًا ولا أقوى على البوح لهم بتلك الهواجس التي ملأت نفسي حتى جاء ذلك اليوم

الموعود.

أخبرني والدي بأن كبير الضفادع يريد الاجتماع بنا جميعًا نحن معشر الضفادع.

هناك بتلك الجزيرة المهجورة وسط النيل وقفنا في زحام شديد.. كان كبيرنا سنًّا ومقامًا، ومن عاداتنا أن نقدس أكبرنا سنًّا ونستمع لنصائحه وتوجيهاته من فترة لأخرى، كلّ على حِدة، ولكنه لم يطلب الاجتماع بنا جميعا بآنٍ واحد إلا هذه المرة..لا بد وأن الأمر مهم للغاية.

خرج كبيرنا على ورقة شجر عالية فتوقف ضجيج نقيقنا لننصت له.

- يا معشر الضفادع.. لقد أمرَنا اللهُ بالخروج لنصبح آية لمَن كفر وتولى.

لا تتعجب؛ فأغلبنا يصلي ويُسبح للإله فلم يتركنا اللهُ جهلاء به منذ بدء الخليقة.. جحظت عيناي حينما استمعت إلى حديثه، وأدركت بأن الدمار كائن

لا محالة.

ـ يا معشر الضفادع.. سنخرج مجتمعين ونهاجم بيوتهم ومعابدهم وقصر فرعون إن أمكننا ذلك.. لا تتوقفوا مهما فعلوا.. إن قتلوكم فأنتم شهداء إلى الله أبرار...

ـ لا..

قاطعته بصوت عالٍ بعصبية بالغة.

ـ مَن أنت؟

تقدمت الصفوف قفزا ناحيته ونظرت له عاليًا.

ـ أنا أحد رعاياك أيها الكبير سنًّا ومقامًا.

ـ وماذا تريد؟

ـ لا مكان لنا بهذا الصراع أيها الكبير.

ـ أي صراع تقصد؟

ـ الصراع بين موسى النبي وفرعون الملك.

لن يفيد خروجنا شيئًا لنا.. فقط سنموت وأحدهما

سيفوز على الآخر.. أين مصلحتنا نحن في ذلك؟

كنت أناقشه بحدة وسط ذهول الحاضرين.. قفز من مقعده العلوي ونظر بعينيّ الجاحظتين.

ـ منذ متى وبيننا خائن؟

ـ لست خائنًا.. أنا فقط أخاف على أهلي.

ـ لا مكان بيننا لخائن أو جبان.. أمسكوه وقيدوه عند الشجرة المباركة ليصبح عبرة لمَن لا يعتبر.. وموعدكم الصبح فاستعدوا للجهاد والخروج.. هيا، انصرفوا إلى بيوتكم.

وانطلقت جنوده مُحاوِلة السيطرة عليّ وأنا أصرخ بأعلى صوت ممكن.

ـ ستموتون وينتهي كل شيء.. لا تخرجوا.. لا تخرجوا.. لا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة.

اقتادوني لتلك الشجرة التي طالما اجتمعنا عندها دون أن نعرف بأنها مكان لتعذيب الخارجين عن الناموس العام.. هكذا كانت تُهمتي التي لم يأتِها

أحد قبلي.

قضيت الليلة بأكملها لا أكف عن الصراخ لمنعهم من الخروج دون جدوى.

واجتمعت حشودهم في الصباح دون الالتفات لتوسلاتي لهم.. وتعالت أصوات نقيقهم وبدءوا الهجوم ناحية العاصمة بأعداد غفيرة.. كانوا يبتعدون وينشرون الرعب بين دروبها حتى غابوا عن مجال رؤيتي.. وقفت وحيدًا مُقيدًا بذلك المكان.

ويلا لهم؛ فقد أضحوا ثوارًا من أجل غيرهم.. سيموتون ويأتي مَن يستغل دماءهم لمكاسبه الشخصية.. وربما سيكتب التاريخ بأنهم ضفادع غوغاء هاجمت العاصمة يومًا ما وقتلوا دهسًا بالأقدام.

خارت قواي وأنا بانتظارهم، والنتيجة الحتمية.. لم يعد أحد.. حينها امتلأت مياه النيل بالدم.. فسالت دموعي وقد عرفت المصير.. ستتحقق تلك النبوءة التي استمعت إليها في المعبد..

مصر في خطر.

غموض في مصر القديمة

معاوية طارق جمال الذهبي

احتشد العوام عند صرح آتون الأول ينتظرون إطلالة الفرعون السنوية كما جرت العادة، في ذلك اليوم المشهود من السنة تنقسم الحشود إلى أربعة أقسام يتقدمهم الوزراء وكبار الجنود والتجار، ويليهم المهندسون والزُّراع والبناءون، ويأتي بقية العمال الذين أنجزوا ذلك البناء الهرمي المُطل على النيل في مؤخرة الصفوف رفقة العوام، اختلف البناء بقمته المستوية وطبيعته الخاصة عن سابقيه بحيث يبدو مَن يعتليه للناظرين من أسفل وكأنه في مركز الشمس، عكست صفحات الوجوه في الصفوف الأولى انبهارا وفخرًا بذلك البناء الهائل بزخارفه ونقوشه والمسلات التي تحيطه من كل الجوانب، فيما غشي السخط بقية الحضور، فهذا الصرح قد اقتُطع له ثلث مساحة الوادي، غير أنه حرمهم من رؤية النهر الفياض الذي تلوثت مياهه برمال وأحجار أثناء فترة التشييد التي استغرقت

أشهرًا، فضلًا عن أهل قرية أوزيس الذين هُجّروا رغمًا عنهم قبل الشروع في البناء..

على ضفة النيل جلس المُعلم أساروف يزرف دموعه على الجريمة التي ارتكبها الفرعون في حق النهر، كان رجلًا عظيم اللحية، مُنحني الظهر، طاعنًا في السن، لا يملك سوى عصاته الخشبية التي تُعينه على السير والتنقل، الوحيد الذي نجا من المذبحة التي دبرها آتون الثاني للعلماء بوثيقة ماعت التي حرّفها الفرعون وبدّل نصوصها المنقوشة على جدران المعابد كي يطيعه القوم بلا تشكك أو معاندة، وأمر الفرعون ألا يقتله أحدٌ فاكتفى بفقء عينيه والقبض على أسرته ليكون عبرة للحاشية المحيطة به من الكهنة، وليفكر النفر منهم ألف مرة قبل البوح بالحقيقة، كان أساروف يعلم بأن آتون قد خرق كل وصايا وقوانين وثيقة ماعت، يسأل أساروف نفسه دائمًا لماذا لم تحل لعنة الإله ماعت على آتون حتى الآن وهو مَن ارتكب كل الجرائم التي حرمتها الوثيقة؟! لقد قتل ونهب

وسرق وظلم واستولى على الأقوات ولوَّث مياه النيل وزنى بالنساء واستباح القبور وبطش بالعلماء، يبدو أننا قد عبدنا الوهم الذي قالوا عنه ماعت، وبينما كان يائسًا ينخرط في البكاء تبللت لحيته البيضاء وفوجئ بصوت يهمس في أذنه:

لا تفقد الأمل في إله يُمهِل ولا يُهمِل، فآتون تبقى له جريمة وحيدة لم يرتكبها بعد..

اهتزت الأرض من تحته وجعل يتململ ويشيح بيده تجاه الصوت علَّه يمسك بمُحدثه لكن بلا جدوى وتساءل في حيرة من أمره:

ـ مَن الذي يتحدث؟!

ـ مَن يتحدث لا يمكنك رؤيته حتى لو رُد إليك بصرك الآن، جئت لأُذكرك بأن آتون لم يرتكب كل جرائم الوثيقة لتحل عليه اللعنة..

ـ لا.. إنه ارتكب كل الجرائم..

ـ إلا واحدة..

ـ لا أحد أعلم مني بجرائم مَن تحل عليهم اللعنة المذكورة في وثيقة ماعت الحقيقة..

ـ إن آتون لم يشرب من دم نفسه كما تقول الوثيقة..

ـ لا يمكن لأحد أن يشرب من دم نفسه..

ـ سيشرب آتون من دم نفسه اليوم..

سكت الصوت الذي يحدثه، فقام يُـهلل ويصرخ ويُبشر بهلاك آتون، تكاثرت الثرثرة والهمهمـات هنا وهناك حتى تراءى للحشد الحراس، وقد أحاطوا بالصرح، وران الصمت فور ظهور الملك آتون الثالث في زيه الرسمي مع أمه الملكة فيروز وقد اعتليا العرش وسط هالة من خاصته، ومن حوله وقف الكهنة على الجانبين بكروشهم المنتفخة وأعينهم الممتلئة مكرًا يتطلعون نحو الحشد، بدا الناس عدا مقدمة الصفوف وحديثي الزواج قريبين في الهيئة والأشكال والألوان، الرجال يجمعهم البدن النحيل والقامة الضعيفة والثياب الرثة، والنساء لا يتميزن

عنهم سوى بالشعر المنسدل الطويل وعلامات الأنوثة التي أوشكت على الاختفاء، لم يكن بين الحشد شخصًا يتجاوز آتون في سنوات العمر إلا هذا الذي يجلس لدى النهر، فالملوك من أسرة آتون كُلما تولى أحدهم العرش قتلوا كل مَن يكبره سنًّا، وانحنى الجميع ركوعًا يعظمون الملك الذي أنعم عليهم بطلَّته أخيرًا، يصبر الناس على الأرض الملتهبة تحت الأقدام والشمس التي تبطش بالرءوس دون تذمر أو ضجر حتى لا تتعطل مصالحهم، ففي ذلك اليوم من السنة يَطَّلع آتون على أوراق الدواوين التي تُجمع على مدار العام، فيُصدِّق على قوانين الضرائب، ويحدد الرواتب، ويتفقد الجنود والرعايا من مكانه، يأمر ببناء الصرح التالي ويختار من بين الجواري ما تناسبه ويوافق على عقود الزواج ليتمكن الرجال من إتيان نسائهم، فقانون حق الليلة الأولى يمنع الرجل في المملكة من معاشرة امرأته قبل عرضها على آتون في ذلك اليوم، فربما يكون له رأي آخر، بدأ آتون خطابه بعد

بضع دقائق مسح فيها الحضور بعينه فقال بصوته الأجش:

ـ من آتون الثالث ملك الأرض الذي تحتضنه الشمس وتجري الأنهار من تحت قدميه إلى رعاياه في المملكة، إنني اليوم أحتفل معكم بعامٍ آتوني جديد هو العاشر لكم تحت حكمي، لقد عملت خلال الأعوام السابقة على الارتقاء بالمملكة في كافة المجالات فنظمت الدواوين وحددت لكل طائفة منكم راتبًا شهريًّا مقابل ما تقدمه من عمل، وزودت الجنود بالسلاح الحديث ليدافعوا عنها وقت الخطر، كما عملت على بيان إظهار قدرتنا الهندسية من خلال تلك الصروح التي لا مثيل لها على وجه الأرض، وهأنذا الآن أقف على أحدثها لأقضي حوائجكم، فاحمدوا لي ما أقوم به في سبيل الممكلة ورعاياها، دُمتم في رعاية آتون وحفظه.

ما إن أنهى آتون خطبته حتى هتفت له الجماهير بكل ما لديها من حناجر، وظلوا على هذا الوضع

حتى وقَّع على كل الأوراق التي وضعها أمامه الحراس، ولما فرغ من ذلك أشار لهم بالسكوت فعاد الصمت يخيم على المكان من جديد، وتناول آتون منظاره من أحد الحراس فحول رأسه إلى اليسار حيث اعتاد الأزواج الجدد الانتظار، وأُمرت النسوة بالوقوف، فيما بقي الرجال جلوسًا، سعيد الحظ هو الذي تُختار زوجته من قِبل الملك ليقضي معها الليلة الأولى، فذلك سيرفعه من طبقة الرعايا إلى طبقة الموظفين، وقد يُسمح له بالترقي فيما بعد لمنصب وزير، وضع المنظار على عينيه وجعل يتحول من واحدة إلى أخرى حتى وقعت عينه على واحدة أشار إليها، كانت فتاة في العشرينيات تُدعى آسيا، بدت طويلة العود، واضحة القسمات، بيضاء البشرة، ناهضة الثدي، يتخذ فمها وضع القبلة دائمًا، وكان زوجها شابًّا يصغر آتون بأربعة أعوام، وجد فيها آتون مواصفات فتاة تليق بالزي الملكي، ونوى أن يتزوجها، جِيء بها إليه فتطلع إليها على مقربة، حَلت له فأمر بفسخ عقد زواجها من ذلك

الشاب وأعلن زواجه منها..

عندما أخذها لتصافح أمه الملكة فيروز، تقربت آسيا إليها على مهل فانحنت تُقبل يدها، حدجت فيروز وجهها فوجدت شيئًا امتقع له وجهها، إن آسيا أشد جمالا منها يوم أن تزوجت بآتون الثاني، بدأت تغار من تلك الفتاة التي ستقاسمها قلب ابنها الوحيد، قد يقع في عشقها ويوصي لها بالعرش، أمرت الحراس والكهنة بالانصراف وغلّقت الأبواب ثم خلت بابنها آتون، قالت بلهجة آمرة:

ـ لا تتزوج من تلك الفتاة..

وكان آتون يعلم رغبة أمه في أن تكون السيدة الوحيدة التي تجلس بجانب الملك على العرش، فقال مُتودًا:

ـ لا تقلقي يا أمي، إنها لن تخرج من جناحها بالقصر، ولن ترافقني زياراتي إلا بعد موتك، تمامًا مثلما فعل أبي معكِ يوم أن قرر زواجكِ رغم رفض أمه حينها، وإذا سبقتكِ للموت فسأوصي لكِ

بالعرش ثم لآسيا من بعدكِ..

ـ لقد توقع أساروف هلاكك اليوم..

ظن آتون أن هذا من باب غيرة النسوة من بعضهن البعض فقال مُتهكمًا:

ـ لم أكن أعلم أن حرصكِ على العرش سيقودكِ للتصديق بحديث المجانين..

ـ ليس بحديث المجانين، بل هو عين اليقين، إن أساروف أعلم الناس بوثيقة ماعت ويعرف الجرائم التي يرتكبها الشخص فتحل عليه اللعنة وتهلكه..

تأكد لديه أن المرأة قد خف عقلها فربت على كتفها ساخرًا ومر بجانبها مُتجها نحو الباب وهو يقول:

ـ لقد توقع نفس الشيء العام الماضي، وهأنذا أمامكِ اليوم، لا داعي لإفساد اليوم يا أمي..

جرت تتبعه لكنه قد سبقها وأغلق الباب عليها، أمر ألا يُفتح لها إلا بإذنه، جعلت تضرب الباب

وتنادي بأعلى ما لديها دون أن يستجيب لها مُجيب، وأخذ آتون بيد آسيا التي تنتظر بلهفة إلى جناحها، ولم يضع في الاعتبار ما قالته الأم، فعاشر زوجته الحسناء واستمتع كما لم يستمتع من قبل.

عند المساء أصدر أمرًا أن تحضر أمه إلى جناح زوجته لتبارك لها، وجاءت الأم في وجه يبتسم ابتسامة ذات معنى، فعانقت ابنها وباركت للزوجة، وجاء الخادم يحمل خمر الزفاف في ثلاث كئوس على كل منها اسم صاحبه، فوضعه على النضد، وأراد آتون أن يُرضي أمه التي بدت كاسفة الوجه، فخرج بها إلى الشرفة حيث يخاطب رعاياه وأعلنها سيدة القصر الوحيدة، وصاحبة القرار في حالة موته، فإن هلكث، فالمُلك لآسيا زوجته، ما زال أساروف يُهلل ويُبشر بهلاك آتون الذي سخر منه واصفًا إياه بالمجنون وحرَّض على سبّه، كانت آسيا قد أدخلت خاتمها إصبعها بعد أن أفرغت محتويات فصه الأبيض في كأسَي آتون وأمه عندما رجعا إليها، وتناول كل كأسه، فشربت آسيا كأسها على

دفعات، وتجرعت فيروز الكأس على ثلاثِ مرات، فيما سكب آتون الكأس في جوفه دفعة واحدة، وبعد دقائق بدأ آتون يشعر مثل أمه بألم شديد في بطنه وهويا يتململان، وكل منهما يعتصر بطنه دون أي قدرة على التكلم، وبرقت الأعين ثم خسف البصر، وجعلا يسعلان بشدة لدقائق نظرت فيها آسيا لفيروز وقالت:

ـ الآن نفّذت ما تمنيته قبل عقدين من الزمان يوم اتفقتِ مع أبي على إبعادي عن القصر حتى تكوني سيدة القصر الوحيدة، وهأنذا اليوم هنا أسقيكِ سُمَّ ما قدمت يداكِ، وأريكِ مقتل ابنكِ في حياتكِ، هأنذا اليوم ملكة آتون طبقا لما أمر به ابنكِ قبل قليل..

وأدرك آتون أن أساروف لم يكن مخبولا يهزي بكلامٍ لا يعرف معناه، استدعت آسيا أساروف للقصر وعيّنته كبيرًا للكهنة بعد أن أفرجت عن أسرته، وعندما حكت له ما حدث صدَّق مَن كان يُحدثه، وفهم ما لم يكن قد فهمه من نص الوثيقة،

لقد شرب آتون من دم نفسه يوم ضاجع شقيقته دون أن يعلم..

هناك في الأعماق

سما خالد

«طريقٌ طويل وغير آمِن، لكنه يستحق».

في منظر كأنه من الجنة: يجري النيل كماءٍ من ذهب.. وتُسلط الشمس عليه ضوءها، تنعكس سنابل القمح الذهبية على ضفتيه فتزيده سحرًا.. أما عن الرياح فإنها تداعب وجوه الوقوف أمامه، كأنما كل الظروف الطبيعية تُجبرك على النظر له، أجمل إجبار في الكون!

أما عنه، فإنه يقف بِمُطلق حريته أسيرًا لجمال النيل.. يقف أسيرًا برضاه؛ أي مَلك ذا الذي يذهب للأَسْر بقدميه، لا بل بقلبه؟!

يقف بكل شموخ الملك، ملك يعشق.. يعشق صوت التخبط بين موجات النيل الصغيرة تلك.. يعشق صوت الطيور حوله يُباهون بجمال النيل الطيور المهاجرة أصدقاءهم، يعشق بريق السعادة هذا الذي يكسو النيل.

يقف بكونه مسئولا عن هذا الجمال الذي يجري في شُريانه دماءً!

مرتديًا ملابس عامة الشعب الكتانية بلا أي مظاهر زينة، فلقد كان هو الزينة لأي مكانٍ هو فيه: وجهه الحاد المُدبب الرجولي، المرفوع دائمًا في السحاب.. عيناه المرسومتان من دون كحل كسيفٍ قاطع، أنفه البارز، شفته ذات اللون البُني الذي تميز به أهل طيبة.. إنه منهم ولهم وبهم.

يفكر.. كيف يحافظ على هذا الكنز الفريد.. شريان طيبة.. بل وقلبها كله.. نعم هو يفيض في مواسمه ولا يبخل.. ولكن ماذا لو تغير الأمر؟

يفكر في المستقبل بحلوه ومُره.. خطواته السليمة وتعثُّره.

هكذا هو تحتمس الثالث، وهكذا يكونون الملوك.

وبصوت أجش زيّنه الخشوع، قال:

«حابي إله النيل العظيم، ابن الإله حورس، هَبْني

عدالتك في توزيع قطرات الماء في الأمواج، هَبْني قوتك في فرض الفيضان الذي يجلب الخير، هَبْني جمال النيل الذي يُريح العيون والقلوب.. هَبْني مِنَّة الحفاظ عليه.. هَبْني الخلود مُقترنًا بك».

استنشق هواء النيل العذب وغسل الهواءُ قلبه فانحنى يشرب بيده اليمنى فرأى انعكاسه على ماء النيل الجاري..

وإذا بالإله حابي يستجيب لصلواته وتطرق عقلَه الفكرةُ من انعكاس وجهه على النيل!

وبسرعة تحرك تحتمس الثالث بخطوات ثابتة تجاه كبير الحرس وصديقه المقرب ـ أمنخاو ـ الذي كان ينتظره مُرتديا مثله، بجسده الأسمر القوي البنيان مثل قلبه.. القوي والقاسي أحيانًا: أرسِل في طلب كبير مُهندسي القصر ونحّات القصر في الحال.

ـ أمرك!

انطلقا إلى القصر، حضر كبير المهندسين

والنحات، قالا وهما يحنيان رأسيهما قليلا كتحية لجلالته: مولاي تحتمس الثالث ملك الشمال والجنوب.

وقف الملك يحوم حول كبير المهندسين كأنه يُغلق عليه دائرة تؤدي لإجابة واحدة وسأله: يا كبير المهندسين.. الكهنة في معبد إيبت أيسوت (الكرنك) يأخذون وقتًا طويلا ريثما يذهبون للنيل كي يتطهروا ثم يعودوا فيتعبدوا.. وأريد راحتهم واختصار الوقت، فماذا ترى؟

ابتسم كبير المهندسين.. كان ذكيا.. فالذكي إذا حكم أحاط نفسه بالأذكياء، هو يعلم أن الملك لا يستشير.. إنه يُمهد بالسؤال عن الرأي، لكنه بالتأكيد يملك الفكرة التي سيُنفذها لا محالة فقال: ما يراه مولاي من خيرٍ للكهنة وللنيل.. فهو أمرٌ نافذ.

قال الملك مُخاطبا المهندس وهو يخطو إلى النحات: إذًا لتبدأ في تشييد بحيرة صغيرة تتصل بنهر النيل ليتطهر منها الكهنة، أريدها في الجنوب

الشرقي للمعبد.

ـ أمر مولاي.

ثم نظر إلى النحات:

أريد كتلة صغيرة من الذهب وستحفر عليها ما سأرسله لك مع أحد الحراس غدًا في المنحت الخاص بك في القصر.

ثم نظر إلى كليهما وقال: فليجهز ما طلبته في أسرع وقت، ولتعلما أن رقبتيكما مقابل كلمة واحدة يعرفها أي أحدٍ عن الأمر.

عاد لعرشه.. نظر لهم وقال: فلتنصرفا.

أما الآن.. فعليه إبلاغ «صوت الآلهة».. إبلاغ الكهنة.. تحديدًا كبير الكهنة.. ذاك الرجل الذي شابَ سنًّا ولم يشب عقلا.. يفهم الأمور ولو كان التلميح على بُعد أميال، أصلع الرأس وربما بات قلبُه أصلعَ من المشاعر أيضًا، أما قلبه فليس بصافٍ تمامًا.. على عكس ردائه الكهني الأبيض!

الكهنة في مصر هم الرابط بين السماء والأرض.. وإذا قُطع الرابط فستسقط السماء على الأرض!

أن تَحمل الدين على عاتقيك.. فهذا يعني أن تكون نقيا.. وبالتأكيد من أهم الشروط ألا تكون ككبير الكهنة هذا!

ولضرورة معرفة الكهنة بخطوات الملك.. ذهب لهم يحسب خطواته.

وصل إلى بهو المعبد، ذاك المكان الفسيح.. أعمدته الشاهقة التي تُلامس السحاب، زهرات اللوتس المرسومة أعلاها بإتقان تتفتح وهي مُحتضنة لضوء الشمس، منظر ليس له قرينٌ من جمال!

عظمة لا تضاهيها أخرى.. أعمدةٌ تنتصب شامخة.. تحمل من شموخ مصر الكثير!

أدى تحتمس الثالث مراسم العبادة وقدّم القرابين للآلهة كعادة أثيرة.. ثم اتجه باسمَ الوجه

إلى الكاهن، إن طيبة كلها تُقدس رجال الدين، وهو الحاكم، وعليه أن يكسب الجميع، حتى إن لم يكسبهم فعلى الأقل لا يكسب عداوتهم:

كيف حالك أيها الكاهن الأكبر؟

رد بنفاق يظهر عليه: بخير.. ما دُمت جلالتك بخير.

- إني بخير.. ولكن هناك فكرةً تؤرقني في الصحو قبل النوم.

قال الكاهن بنبرة تهديد مختبئ: ما الذي يؤرق ملكنا ويشغله عن حكم مصر؟!

- الأفكار لا تشغلني، إنها تقوي عزيمتي.. فكل ما في ذهني هو لمصر.. إني إريد الخلود للنيل والراحة لكم يا كهنة مصر الأبرار.

نحن في راحة ما دُمنا في رعاية الآلهة، أما النيل فهو خالدٌ يا مولاي.. ذهب مَن ذهب ويأتي مَن يأتي وهو سيبقى ينبض وتنبض به مصر.

ـ ليس كل الذاهبين كالآتين يا كاهننا الأكبر.

ـ إني أخاف عليه ممن سيأتي.. من القادم.. ألا يحترمه القادمون.. أن يستهزئوا به ويعاملوا حابي مُعاملة لا تليق بمقامه.. أن يمسه أحدٌ بسوء.

ـ وما رأي مولاي؟

ـ كنت أناجي الإله حابي صباح اليوم.. وأوحَى لي بفكرة سديدة، سأُشيد بُحيرة في الجنوب الشرقي من المعبد.. بُحيرة لا يزيد منسوب مائها ولا ينخفض ولا تنضب أبدًا.. ومنها تتطهرون للعبادة.. حتى تُوفروا وقت الذهاب للنهر.. في العبادة والإنصات للآلهة. ستكون بُحيرة خالدة، وفيها نضع سِرها.. كي يستخدمه القادمون في الحفاظ على هِبة النيل.

عقدَ الكاهن حاجبَيه إعرابًا عن اعتراضه، وقال: السحر يكمن في الغموض.

ـ أما الخلود فيكمن في المعرفة.

صمت الكاهن قليلا ثم قال مُدعيا ما لم يحدث:

صوت الآلهة يقول إنها معترضة.. لا يمكننا أن نقدم فكرنا ببساطة هكذا..

قال الملك وقد فهم ادعاء الكاهن: أيها الكاهن الأكبر، إن الآلهة لا توحي بشيء إلا وهي تريده، ولقد أوحت لي.. ولا يُراودك قلق.. مصلحة طيبة فوقنا جميعًا.

ذهب إلى قصره وتعمد أن يخفي عن الكهنة كل التفاصيل حتى يتم ما يريد.. إنه لا يُزيل العقبات.. إنه يتخطاها..

وبعد يومين حضره أمنخاو، حيّاه وقال: مولاي لقد أنهى النحات العريضة الذهبية، وها هي.

وقدمها له أمنخاو، إنها تلمع ببريق يختلف عن بريق الذهب.. ببريق لم يرَ أحدٌ مثله ولن يرى.. بريقها من بريق البقاء!

أخذها تحتمس الثالث وابتسم، عريضةٌ ذهبية صغيرة ولكن ما عليها كبير، إنها السر الذي سينقذ

طيبة في المستقبل.. ابتسم الملك أكثر وخاصة عندما رأى نفسه مُنعكسًا عليها.. رأى نفسه فيها.. ورأى فيها البقاء الأبدي ورضا الآلهة عنه..

وأكمل أمنخاو: أما البحيرة، فلقد تم حفرها لكن لم يتم توصيلها بماء النيل بعد.. الليلة مساءً سيجري النيل في البحيرة..

ذهب الملك بعينيه في السماء وقال: إذًا يا أمنخاو الليلة مساءً سنذهب للبحيرة.. سنذهب للخلود.

ـ ماذا ينوي مولاي فعله؟!

ـ أنوي الخلود للنيل.. ولنا.

ـ اسمح لي مولاي.. الخلود لنا وللنيل بالطبع، نحن منه ومثله.. فما الداعي لكشف سرٍّ هندسي عظيم كهذا؟!

ـ أعلم يا أمنخاو، لكن قد يحتاج ابنٌ لي هذا السر حتى يحفظ ماء النهر.. وربما يحتاجه حفيد لي..

النيل هو طيبة وطيبة حياتها في النيل، هو الطريق للخلود وإني لا أعلم ما سيحصل للنيل مستقبلا.. المستقبل ليس دائمًا بجمال الحاضر والماضي.. والاحتياط مطلوبٌ يا أمنخاو.

- لمولاي كل الحق.. ولكن الكهنة يا مولاي معترضون والقوة الحقيقية تكمن في عدم معرفة مصدرها..

ثم صمت لثانية وأكمل بصوت مُحذِّر: ونحن لا نعلم ماذا سيفعلون لو علموا خطواتك..

الآلهة فوقي وفوق الكهنة.. ولقد أوحوا لي وسأفعل ما أمروني.. أما عن القوة.. فالقوة هي الحفاظ على منة منحتها الآلهة.

ثم استدار جلالته ورفع وجهه في السماء كأنه يوجه الكلمات للآلهة في السحاب وقال: إني اتخذت قراري يا أمنخاو.. الليلة مساء بلا حُراس.

تنهد أمنخاو وانحنى: يا مولاي إني في ظهرك

دومًا، صديقك وحارسك الوفيّ.

تبسم الملك بفخر قائلا: وفاؤك يلمع أمام ناظري كقرص الشمس يا أمنخاو.

وخرج أمنخاو من غرفة الملك مُتجها إلى البحيرة التي تكمن أمام المعبد الذي يقيم فيه الكهنة..

حل المساء ونزل القمر يتفقد الموقف.. يشاهد اللحظات التي ستصنع الخلود..

العريضة الذهبية السميكة الصغيرة ملفوفة في أوراق البردي.. الأوراق التي كُتبت عليها بعض الكلمات السحرية.. كلمات ستسمح فقط لمَن يستحق أن يعرف السر بالاقتراب من البحيرة.. أما غير ذلك.. فسيُمنع عنه الاقتراب من البحيرة،

كتب على الأوراق بالهيروغليفية:

«يا إله الخير والسعادة حابي إله النيل العظيم..

بك سحرٌ سيعرفه صاحب الحق في نيلك الطيب

ويظهر معنى السحر لمن يستحق حمل المعنى ورعاية نيلك العظيم.

أما مَن لا يستحق فستُصيبه لعنة منك.. من قطرات مائك وسريان نهرك في شتى البقاع».

وضع تحتمس الثالث العريضة الذهبية الصغيرة في تنورته الملكية ذات الحزام الذهبي وارتدى عباءته تلك التي يخرج بها للأسواق كي يطمئن على الأمور خارج القصر.. عباءة تغطيه تمامًا.. بالكاد يَرى موضع قدمه منها.. ارتداها كي لا يتعرف أحد عليه.

وذهب الملك مُصطحبا معه أمنخاو صديقه المقرب وكبير حرسه.. وصلا إلى البحيرة التي ستشهد سر الدوام والخلود.. الليل بعتمته يخيم على الموقف.. الظلام الذي يوحي بالخوف.. لكن لا يخاف مَن يفعل الصواب.. وقف الملك أمام البحيرة وفي ظهره أمنخاو.. أخرج العريضة سريعًا فالموقف لا يتحمل الانتظار.. مال بجسده ومد يده يهم برمي العريضة الذهبية.

وفجأة أتى صوت أمنخاو عاليًا: مولاي!

فالتفت الملك فإذا به يجد خنجرًا في قلبه.. هكذا وبمنتهى البساطة غرز أمنخاو الخنجر في قلب الملك.. لم يتسنَّ له الدفاع عن نفسه.. أتت الخيانة من شخص موثوق به. طعنتان في واحد: طعنة في القلب الملموس.. وطعنة في صداقة العمر.. ألمٌ لا يُحتمل.. وقع الملك أرضًا ولا تزال العريضة في يده.. ألقاها في البحيرة بسرعة وهو يعلم أن حابي سيفعل اللازم ويحتضنها، ولن يجدها أحد حتى الوقت المنشود.

تحرك أمنخاو يحاول أن يأتي بها لكنها غرقت في عمق البحيرة.

ـ لا بد أنك نسيت أني سبّاح ماهر، قالها أمنخاو ساخرًا.

وهمَّ يتحرك حتى يقفز.. وفي لحظات تفصل تحتمس عن الموت.. وضع يده على خنجره وغرزه في قدم أمنخاو حتى خرج الخنجر من الاتجاه

الآخر!

تأوه أمنخاو ووقع أرضًا يتحسس الخنجر غير قادر على إخراجه.

فأتى صوت الملك مُنتصرًا من بين أنفاسه الأخيرة: سأظل حيًّا حتى بعد موتي.. وستظلُّ ميتًا ما حييت.

ينظر أمنخاو له بألم.. يتوجع.

أما الملك فيبتسم وجفناه ثابتان تحتهما نظرة من عينين تحاربان حتى اللحظة الأخيرة.. نظرة قوة حتى في أشد أوقات الضعف... ثم... لا نظرة... مات الملك... مات وهو يبني الخلود... مات وقد خلد.

نظر أمنخاو حوله وهو يتألم باحثًا عن الكاهن الأكبر: خرج الكاهن من معبده ونظر لأمنخاو بحزمٍ مُتغاضيًا عن جرحه: أين العريضة؟

قال أمنخاو بصوت متألم: لقد ألقاها في البحيرة، لم أستطع منعه.

نظر الكاهن الأكبر بغضب ليس كمثله غضب، ثم قال بصوت حنون مصطنع: إممم، لا بأس سنبحث عنها، الآن أعطني قدمك حتى أُخرج منها الخنجر.

فمدها أمنخاو للكاهن ثم سحب الخنجر من قدمه، ولكن ليس ليُعالجه..

بل ليقتله!

سحبه من قدمه ووضعه في قلبه.. لم يكن ليتركه حيًّا!

مات تحتمس الثالث ومات أمنخاو، ولكن بين الموت والموت فرق!

دفع الكاهن الجثتين في البحيرة، سيتحللان هنا، وحتى ذلك الحين سيمنع هو أي شخص من الاقتراب للبحيرة.. بصفته كاهنَ مصر الأكبر.. والأحقر!

جسدان مقتولان في البحيرة.. أحدهما يرفعه النيل لسطحه بشرف وفخر؛ فلقد مات فداءً لقطرات

مائه.. أما الآخر فلقد سلط عليه حابي تمساحًا ليأكل جسده.. جسد كهذا لا يستحق أن يتحلل في النيل.. في نقائه وخلوده.

أما روح الملك فستظل تتجول في المعبد وتختبئ في نقوشه الغائرة، تحرس البحيرة حتى يأتي الشخص المنشود فيكتشف السر الخالد أبدًا.

حلم إيزادورا

هدير السيد

لا يجب أن يكتشف أحد أفراد حراسة القصر تسللها في ذلك الوقت المتأخر من الليل، ربما ليست أكثر من مجرد ابنة لإحدى خادمات قصر أحد النبلاء ولكن تسللها لخارج القصر في ذلك الوقت المتأخر من الليل سيثير العديد من التساؤلات التي لا تمتلك إجابتها، أرخت قلنصوة عباءتها على وجهها ثم تبعتها بنظرة أخيرة ألقتها نحو القصر المظلم إلا من بعض المشاعل المُعلقة على جدرانه ثم أطلقت لقدميها العنان، لا تعلم ما الذي أصابها في الفترة الأخيرة، تلك الأحلام الرومانسية التي تتركها جائعة لشعور ما، لمكان ما وربما لشخص ما!

الطريق لمنزل العراف كان أطول مما ترغب وأقصر مما تأمل، وما بين الخوف من المجهول وترقبه كانت تترنح على شفا حفرة ظاهرها الفردوس وباطنها يخفي ألسنة الجحيم، وكالفراشة

التي يجذبها ضوء اللهب لم تكن تملك سوى الاقتراب، علَّ عنقاء المجهول تنبثق من رماد الحاضر لتحلق في آفاق مستقبل ما زالت تجهله، طرقت باب العراف طرقتين ثم دفعته لينفتح أمامها بأزيز غاضب، تحركت للداخل بخطوات مهتزة، تتأمل المنحوتات على الجدران بفضول وهي تحت الخطى صوب المجهول، رياح باردة لا تعلم مصدرها جعلتها تحتضن طرفَي عباءتها بحمائية علّها تحمي جسدها من البرودة المفاجئة، ولكنها للأسف لم تستطع حماية المشاعل الجانبية على الجدران والتي ارتعش لهبها للحظات قبل أن تنطفئ تمامًا، تاركة لها في قعر حفرة مظلمة جعلت الشعيرات القصيرة على مؤخرة عنقها تقف تأهبًا، ابتلعت ريقها بخوف وهي تتابع خطواتها الحثيثة نحو الداخل، يصاحبها صوت صفير الرياح التي لا تعلم متى هبّت فجأة، قفزت فجأة مُتراجعة للخلف بإجفال عندما ظهرت شعلة ضوئية أمامها تمامًا ومن خلفها ظهرت ملامح العجوز الذي تقصد، أصلع الرأس، بعينين

إحداهما طغى بياضها على سوادها لتبدو كسحابة دخانية كثيفة، ابتسم كاشفًا عن صف من الأسنان الذهبية ثم التف على أعقابه قائدًا للطريق..

وقفت في المكان الذي أشار لها نحوه عندما وصلا أخيرًا لساحة استقباله لزواره، على الطرف الآخر من الطاولة الدائرية التي تراص فوقها العديد من المعدات التي لا تدري كُنهها، ابتلعت ريقها الجاف وهي تحاول تفسير النظرة الغريبة التي ألقاها نحوها، تنتظر حديثه، رغم أنها لم تخبره سلفًا بقدومها، إلا أنها تعلم يقينًا أنه كان في انتظارها، دومًا ما يفعل، دومًا ما يعرف دون الحاجة للسؤال.

ـ تعلمين أنه من الواجب أن تحذري مما تتمنينه، أليس كذلك مكسيم؟

أومأت دون فهم حقيقي لمغزى كلماته وهي تنتظر بصبر متابعته التي لم تتأخر وهو يستطرد بينما يضع إحدى وريقات البردي أمامه على الطاولة، يتأملها بتدقيقٍ للحظات، ثم رفع نظراته الخاوية

تمامًا من أي تعبير في مواجهتها، ثم قال بصوت وكأنه خارج من أعماق الجحيم:

- على ضفاف النيل ينتظر المصير، ومن رماد الماضي القريب أيقظتك استغاثة القلب العليل، في نهر الحب انتزع الوفاء، والعهود غير المنطوقة ما زالت معلقة في الهواء.

ثم أسقط رأسه فجأة أمام نظراتها الذاهلة قبل أن يرفعها وقد عاد لحالته القديمة وهو يتابع بينما يلوح لها نحو الخارج:

- اذهبي.

- إلى أين؟

التمعت عينه المُصابة ببريق غريب، ولكنه خفت سريعًا وكأنه مجرد محض خيال ابتدعه عقلها.

- ستدلك على الطريق.

- مَن؟

ظهر الانزعاج على ملامحه، لا تعلم هل يخصها به

أم ماذا، ربما فقط بتلك الطريقة يحافظ على غموض وهيبة العراف الذي طالما سمعت عن كراماته.

ـ فقط ارحلي.

كانت تلك صرخته التي جعلتها تنتفض في وقفتها مفزوعة وقد برقت عيناه ببريق غاضب أخافها، أومأت برأسها بسرعة وهي تشعر وكأن حضورها اليوم للحصول على أجوبته لأسئلتها لم يتركها فقط خالية الوفاض ولكن مُحملة بالمزيد.

وبمجرد خروجها من الغرفة تهالك على مقعده، يفرك جبهته بإرهاق وهو يلعن نفسه وضعفه الذي دفعه للقبول بتلك الصفقة اللعينة التي ستدفع ثمنها.. وللأسف تلك المسكينة!

* * *

بمجرد أن خرجت من باب منزل العراف صفق الباب خلفها بعنف جعلها تقفز في مكانها، ما الذي

دهى ذلك الرجل، وضعت يدها على خافقها علّها تهدئ من عنف خفقاته التي يتردد صداها في أذنيها، التفتت لتطالع الطريق المتفرع أمامها، لا تعلم أيهما تسلك، وعندها تذكرت جملته: «على ضفاف النيل ينتظر المصير».

تحركت في الطريق الذي اختارته كما استحسنه صوتها الداخلي، هل سيصفها أحدهم بالجنون لو اعترفت بأن لها صوتًا داخليًا يرافقها، ربما هي فقط قريبتها تحاول مساعدتها، وربما حقًّا قد فقدت عقلها، كل خطوة كان يتقدمها شعور غامر بالحماس يدفئ دواخلها، خفقات قلبها كانت تطرق بتناغم عذب، عيناها تلتقطان فقط كل جميل من حولها، خطواتها تصبح أكثر رشاقة وكأنها لا تلامس الأرض من الأساس، تطفو في الهواء العليل بخطوات راقصة تتلهف لأن ترسو فقط في وجهتها، لا تشعر بألم قدميها رغم طول الطريق، أبطأت خطواتها عندما اقتربت من حافة النهر، يا الله، إنها ليست وحيدة، حالتها متضاربة ما بين الرعب

والاستحسان، وفي حين أن كل حواسها تدفعها دفعًا للركض بعيدًا عن ذلك الغريب الذي لم ينتبه على ما يبدو لوجودها، صوتها الداخلي يطمئنها بأنه أبدًا لن يؤذيها، لا تعلم من أين أتاها ذلك اليقين وهي لا تعرف حتى مَن الشخص الجالس في ذلك الوقت وحيدًا على ضفة النيل.

صوت تكسّر الأغصان تحت ضغط قدميها جعله يلتفت مجفلًا لينظر مباشرة في اتجاهها، لحظات من الصمت دامت بينهما وهي على وقفتها تلك، عاجزة عن الحركة، ومشاعر متضاربة تجتاحها نحو ذلك الغريب، مشاعر تشبه تلك التي طالما أرقت مضجعها مؤخرًا، مزيج من الشوق واللهفة، السكينة والأمان، في موقف آخر كانت لتسخر من سذاجتها، فشعورها بالأمان نحو شخص عاجزة حتى عن رؤية ملامحه لهو درب من الجنون، لقد بدأت الشمس أخيرًا في ملامسة حافة الأفق، ربما هي عدة دقائق فقط تفصلهما عن ضوء النهار، ولكن ما الذي ستفعله في تلك الدقائق؟ هل فقط ستقف مكانها تنتظر،

وكأنه قد وصله صوت تساؤلها الداخلي ليقول قاطعًا للحظات الصمت اللعين بينهما:

ـ مَن هناك؟

فتحت فمها لتُجيبه، ولكن صوتها كان حبيس حنجرتها، تشعر بكونها غريبة في جسدها بينما يصلها صوت آخر تمامًا لا تعلم كيف خرج منها.

ـ إيزادورا.

ماذا؟! ابنة الحاكم، ولكن كيف؟ لقد ماتت إيزادورا منذ أشهر خلت، وكيف بحق الله تتحدث بلسانها الآن؟ حاولت الحديث مجددًا، إخباره بأنها الخادمة مكسيم وليست الابنة المُدللة لحاكم الإقليم، ولكن قوة خفية جعلتها تتخذ مقعد المشاهد، تطالع المشهد أمامها دون القدرة على التدخل، تقدمت إيزادورا خطوة في اتجاه الغريب، ورغم مقاومة مكسيم لتلك الحركة إلا أن جسدها كان خارجًا تمامًا عن سيطرتها، استسلمت بيأس بعد عدة محاولات فاشلة وهي تدرك بأنها قد أصبحت

غريبة في جسدها، مجرد مشاهد للأحداث غير قادر على التدخل، عندما اقترب جسدها أخيرًا من الشاب الغريب اتسعت عيناها بغير تصديق وهي تطالع شحوبه بينما تسمع لسانها يهتف بلهفة غريبة على أذنيها:

- حابي.

مَن؟! حابي، إنه الضابط حابي لا غيره، صاحب قصة الحب الشهيرة مع ابنة الحاكم، العشق الذي عارضه والد إيزادورا مما دفعها للانتحار أمام حبيبها، شهقة مختنقة لم يسمعها غيرها وهي تتعرف على المكان الذي يقف به جسدها الآن، إنه نفس المكان الذي أشيع أنه كان مكان لقائهما الأخير والذي لقت به إيزادورا حتفها. هل فرت روح إيزادورا من العالم الآخر لتلتقي حبيبها في جسدها هي؟ تطلعت في حابي الذي على ما يبدو قد شلته المفاجأة وإيزادورا تُردد بحزن استشعرته ينخر عظامها.

«أيتها الصغيرة الجميلة، أيتها الطيبة البريئة، والزهرة الناضرة، التي ذبلت في ربيع العمر، يا ملاكي الطاهر الذي رحل دون وداع».

ثم تابعت بتساؤل:

ـ أليست تلك كلماتك حابي التي تركتها على جدران مقبرتي؟ ها قد عُدت حبيبي، عُدت في جسد يخولنا الاقتران معًا دون فوارق طبقية تحول دون عشقنا.

دمعت عينا حابي وهو يتأمل هيأتي ولكن بروح إيزادورا، وكأن عينيه تريان حبيبته الراحلة لا تلك المسكينة التي توارت خلف ستار الحقيقة، صدره يعلو ويهبط بجنون بينما أنامله المرتجفة ترتفع لتلامس وجنتها، أنامله الدافئة أسرت بقشعريرة على طول عمودي الفقري، لم أعد فقط مجرد وعاء يحمل روح شهيدة الحب، ولكني أستشعر ما تستشعره الآن، مشاعر لطالما تساءلت كيف تسلب العقول، وهأنذا أبحر في أعماقها، لا أنا بغارقة مثلها

ولا أنا بناجية من دوامات الهوى، برضوخ سلمتها زمام أموري واندمجت في وهم صبغ بلون الواقع، اقتربت فاقتربت، دمعت عيناي تأثرًا وعشقًا لشخص لطالما سمعت عنه ولكني أراه للمرة الأولى، تلامست أناملنا ثم سحبني لأجلس بجواره، أستشعر الحرارة المنبعثة من جسده بينما أتوسد كتفه، يحيط خاصرتي بحمائية رجل وجد كنزه المفقود بعد يأس، لقد سمحت لي إيزادورا بأن أشاركها مشاعرها، وليتها لم تفعل.

ـ كـ كيف؟

سؤاله المتردد جعلها تبتسم وهي تنتظر بنفاد صبر سماع جواب تلك المسيطرة على جسدها، لربما وجدت تفسيرًا منطقيًّا لما يحدث معها الآن.

ـ لقد زُرت العراف في المنام بعد أن قرأت رسالتك. وعدته بالجواهر الموجودة في مقبرتي، على أن يقوم بحيله السحرية لسحب روحي من العالم الآخر.

قبّل قمة رأسي وهو ينظر بعشق آلمَ صدري في عُمق عينيّ وهو يتابع تساؤلاته:

ـ ولماذا ذلك الجسد تحديدًا؟

ـ إنها تماثلني عمرًا، شغفًا للعشق، ذكرني بنفسي قبل أن ألتقيك حبيبي، تتوق للحب كما ثُقت له قبلًا.

أومأ لها بتفهم، فلم يعد للحديث بعد أهمية وقد وجد ضالته، عشقه المسلوب وروحه الضائعة في أروقة العشق الخاوية، الساعات تمضي وأنا أذوب بينهما بلا رغبة في الخلاص، أعيش حالة فريدة لعشق تحدي الفوارق، وفاء تخطى عتمة المجهول، وحياة تجاوزت بمهارة سطوة أنوبيس، النهار مضى وأنا أتشرب عشقهما بجوع ونهم، ولكني نسيت كما نسي مرافقاي أن الساعات الجميلة تمضي أسرع مما نأمل، تبدلت حالة الطقس فجأة من حولنا مما جعل حابي يشدد من قبضته حول خصري وهو يتلفت حوله بفزع، عاصفة ترابية شديدة عاجلت المكان بينما ارتفع منسوب مياه النيل أمامنا مهددًا بإغراقنا

في لحظة، لحظة واحدة تبعها اهتزاز عنيف للأرض من تحتنا دفعنا للافتراق، ومن بيننا شق طولي في الأرض يحول دون تلامس أناملنا من جديد، لم أكن ألعب دور المشاهد في تلك اللحظة، ولكني كنت أشعر وكأني المعنية بالأمر، صرخة مرتعبة وجدت طريقها أخيرًا لحنجرتي عندما ظهر أنوبيس فجأة بهيأته المخيفة، هل أتى لأجل إيزادورا؟ هل سثحرم مجددًا من عشقها؟ ألا يرى عشقهما ظاهرًا لا التباس فيه؟ وأنا هل سأعود خادمة قصر أحد النبلاء من جديد؟ شعور بالفقد عاجلني لألتفت نحو حابي الذي وقف يزأر كأسد جريح، أرمقه بحزن وأنا أستعد للألم المصاحب لسحب روح إيزادورا من جسدي ومعايشة الخواء من جديد، إلا أن صوت أنوبيس كان راعدًا وهو يقول بينما يضع يده الضخمة على رأسي حتى سمعت صوت طقطقة عظام رقبتي:

- عقاب الروح كما الجسد، الروح مذنبة بإثم الفرار من مصير اختارته، والجسد خائن كروح

صاحبته لقوانين الطبيعة، أحكم عليكِ بأن تهيمي على وجهكِ في أرض الأحياء، تنشدين خلاص الأبدية ولا تجدينه، روح مُعذبة تهيم فوق ضفاف النيل، عبرة لمن تبعك من الخائنين.

واختفى فجأة كما ظهر فجأة، تاركًا لي أحاول فهم فحوى كلماته بلا جدوى، لقد اختفى الصوت برأسي واختفت آثار قدوم أنوبيس كذلك من حولي، إلا من حابي الذي وقف مشدوهًا يطالع المشهد بعينين جاحظتين. تحركت لأواسيه، ولكنني لم أكن أتحرك على قدمين كالعادة، لقد كنت أطفو فوق جسدي الراقد في الأرض بلا حراك وقد فارق الحياة، صرخة مُلتاعة، خرجت من فمي، تفاعلت معها الطبيعة التي ثارت من حولي. شاهدت حابي يتراجع للخلف مُبتعدًا؛ وهنا ذهب تعاطفي أدراج الرياح، كريح غاضبة أسرعت أطفو نحوه، أنشد انتقامًا عادلًا لعمري القصير ومصيري الملعون، ولكني كنت محكومة بمكاني، لا يسمح لروحي باجتياز ضفاف النيل، وبعد أن كانت تلك البقعة

شاهدة على العشق والوفاء صارت مكانًا مرعبًا يتجنب الكثيرون الروح الناقمة التي تقطنه، لم أرَ حابي بعد تلك الليلة الملعونة وكذلك العراف الذي تسبب في معاناتي، ولكني لن أيأس؛ فأمامي الآن الأبدية التي لم أختزها. لقد صرت ضحية لحلم إيزادورا، والآن قد حان وقت الانتقام!

(الحب والوفاء وجهان لعملة ابتلعها قعر النيل يوم احتضن بتملُّك جسد شهيدة الحب.. إيزادورا، حلم العاشقين الذي داعب مُخيلة الواقع تاركًا مِن خلفه روحًا هائمة تبحث عن الخلاص).

غموض في مصر القديمة

أحمد مجدي أحمد

بينما كان الخيميائي وصديقه يتجولان في المدينة، توقفا بجوار أحد التماثيل المصرية القديمة.

فالتفت صديقه للتمثال وقال: يشبه تمثالا رأيته في المتحف من قبل.

رد الخيميائي مُستعجبا: ألا تعرف اسمه؟ أزُرت المتحف ولم تقرأ تاريخ التماثيل؟!

ضحك صديقه وقال: أنا أزور المتحف من أجل التقاط الصور وفقط.

أردف الخيميائي مُستغربا: تلتقط الصور مع هؤلاء الملوك دون أن تعرف مَن هم!

وهل تعتقد بذلك أنك زرت المتحف؟ ما رأيك أن تأتي معي غدًا في جولة على ضفاف التاريخ؟

ارتسمت الدهشة على وجه صديقه مُردِدًا: جولة

على ضفاف التاريخ! وكيف تكون هذه الجولة؟

سأله الخيميائي بحماس: ألا تريد خوض مغامرة؟!

هز رأسه موافقا وقال: بلى.

لم يعطه الخيميائي فرصة ليفكر وقال وهو يمضي بعيدًا: إذًا أراك غدًا أمام المتحف المصري.

ودعَ الخيميائي صديقه ثم انصرف إلى بيته، ودخل إلى غرفته التي تعزله عن العالم.

انتبه إلى صندوق وسط مكتبته يحوي مجموعة من الكتب القديمة، كان قد اشتراها منذ شهرين، نفض التراب عن الصندوق وأخرج أول كتاب وقع نظره عليه.

كان كتابًا مختلفًا عن أي كتاب اشتراه من قبل: غلافه مزخرف بالنحاس، وله قفل ذهبي! وحواف الأوراق من الخارج قد رُسمت عليها خريطة العالم القديم.

بدأ يحدث نفسه: ما هذا الكتاب الغريب؟ لنرَ عم يتكلم وإلى أي رحلة سيأخذنا!

تناول الكتاب وجلس إلى مكتبه، فلما فتحه كانت المفاجأة.. إذ بمارد يخرج من بين صفحاته.

انتفض الخيميائي من على الكرسي ووقع على الأرض.

فك المنظر عبوس وجه المارد وقال: لا تخف يا صديقي، أنا حارس هذا الكتاب.

قال له الخيميائي وهو يتلعثم: لست بخائف، ولكن كيف خرجت من الكتاب؟

ضحك المارد ساخرًا وقال: فلماذا ترتجف إذًا؟ ربما لأنها أول مرة!

وأردف قائلا: خرجت من الكتاب! أنا الكتاب نفسه، ألا تنظر للأوراق بين يديك؟

نظر الخيميائي لأوراق الكتاب فإذا هي بيضاء لا توجد أي كتابات عليها!

وضع المارد يده على كتف الخيميائي وقال: أنا هنا لآخذك في رحلة على ضفاف التاريخ.

ردد الخيميائي جُملته مُستعجبا: رحلة على ضفاف التاريخ، هذه كلماتي، كيف عرفتها؟!

أشار المارد للمكتبة وقال: كما تقرأ أنت الكتب، فأنا أقرأ البشر، هيا أخبرني إلى أي عصر تريد أن تذهب؟

تساءل الخيميائي: وهل ستأخذني فعلا إلى أي عصر أريده؟

رد المارد واثقا: بالطبع، ما رأيك أن تتأكد بنفسك؟ هيا أخبرني إلى أي عصر تريد أن تكون رحلتك؟

أجابه الخميائي: إلى مصر القديمة، إلى العصر الذهبي.

تبددت جدران الغرفة وكأنها تطير في السماء، وإذا بالمشهد من حولهم يتغير تمامًا.

سمع الخيميائي صوتًا قادمًا من خارج القصر،

فسرعان ما اختبأ خلف أحد الأعمدة.

ظل المارد يتجول وينظر للكتابات على الجدران، ثم التفت للخيميائي وقال: لا تختبئ، فلن يراك أحد، أنت فقط مَن سيراهم.

خرج الخيميائي من خلف العمود، وقد دخل الموكب إلى البهو وجلس الملك على كرسي العرش.

امتلأ القصر بالكهنة لإلقاء التحية، ثم انصرفوا ولم يبقَ سوى كبير الكهنة وأربعة من مساعديه.

وجّه كبير الكهنة حديثه لمَن يجلس على العرش وقال: ألا تخبرينا يا مولاتي حتشبسوت عن سبب دعوتنا.

همهم الخيميائي مندهشا: الملكة حتشبسوت! لماذا ترتدي كالرجال؟! وما هذه اللحية المستعارة؟!

سمعه المارد فقال: لتكون هي الملك الجديد.

اعتدلت حتشبسوت على كرسي العرش وقالت للكهنة: لقد رأيت رؤيا في منامي ليلة أمس، رأيت

الآلة تأخذ بيدي لتجلسني على كرسي العرش.

علا صوت همهمات الكهنة: امرأة تجلس على العرش! أتحكمنا امراة؟!

ثم أردفت قائلة: ولا أجد تفسيرًا لهذا إلا بأن حكم مصر بات لي الآن، أليس كذلك يا كبير الكهنة؟

أجابها كبير الكهنة على وجل مُستنكرًا: ولكن يا مولاتي كيف يكون الملك بهيئة أنثى؟

قامت حتشبسوت من على العرش وبدأت تتحرك يمنة ويسارًا، وكأنها تفكر في الأمر، ثم نظرت له وقالت: لا عليك، لقد فكرت في هذا الأمر من قبل، ومن اليوم فصاعدًا سأظهر بهذه الهيئة، وستُنحت تماثيلي كأنني رجل.

تغير المشهد فجأة! وصارت الشمس فوق رءوسهم، ومن حولهم رجال كُثر يجرون أحجارًا كبيرة.

تساءل الخيميائي: ما الذي يحدث هنا؟ وما كل

هذه الأحجار الضخمة؟

أجابه المارد: إنهم يقومون ببناء الهرم الأكبر؛ هرم خوفو.

«يا إلهي! أبهذه الطريقة كانت تُبنى الأهرامات؟!». هكذا اندهش الخيميائي.

أكمل المارد قائلا: نعم، بهمة هؤلاء الرجال الذين يعملون ليل نهار، أتريد أن أخبرك سرًّا؟

رد الخيميائي: بالطبع، أخبرني.

قال المارد: أتدري أنه بالرغم من عظمة هذا الهرم، إلا أنه لا يوجد تمثال قد نُحت للملك خوفو في عصره إطلاقًا.

نظر الخيميائي للهرم مندهشًا وقال: ملك يبني هرمًا بهذا الحجم ولم يُنحت له تمثال واحد!

أكمل المارد: أراد أن لا ينشغل العمال بأي شيء سوى بناء الهرم، لكن لا عليك، هناك تمثال له أصغر من حجم كف اليد ستجده في المتحف حين تزوره

غدًا، نُحت له بعد موته!

وضع العمال قمة ذهبية أعلى الهرم فبات النور يشع منه حين تسقط أشعة الشمس عليه.

سأله المارد: أتريد أن ترى توت عنخ آمون وهم يُحنطونه؟

أجابه الخيميائي بلهفة: لننطلق.

تبدل المشهد تمامًا، وإذ برجال يُجهزون جثة الملك الصغير للتحنيط، وقد زيّنوا جسده بالحلي الذهبي.

نظر الخيميائي للرجال وهو لا يكاد يصدق ما يراه وقال: لقد حنطوه وهو يرتدي الحلي! وها هو القناع الذي أبهر العالم: قناع توت عنخ آمون.

رد عليه المارد: أنت الآن في حضرة الملك الذهبي، لنتركهم يُكملون المراسم الجنائزية ولنعُد من حيث جئنا.

قال له الخيميائي مُمتعضًا: بهذه السرعة!

نظر له المارد وقال: هي رحلة على ضفاف التاريخ، أنسيت؟!

وجد الخيميائي نفسه بين حوائط مكتبته المليئة بالكتب، مُمسكًا الكتاب بين يديه، والقفل الذهبي قد أغلق.

ظل جالسًا في مكانه لا يصدق ما قد حدث له، إلى أن انتصف الليل، فصعد إلى غرفته؛ علّه ينام بضع ساعات، استعدادًا للقاء صديقه في الصباح.

بينما هما يتجولان بين تماثيل المتحف المصري، توقف صديقه أمام أحد التماثيل مُتعجبًا: هذا التمثال غريب جدًّا! رغم أن ملامح الوجه كأنثى، إلا أنهم قد نحتوا له ذقنًا!

شرد الخيميائي إلى ما حدث مع المارد بالأمس وأجابه قائلا: من هنا سنبدأ جولتنا على ضفاف التاريخ.

صائدُ الأرواحِ الملعونة

أدهم العبّودي

أرى الأرواحَ التي لعنَها الإله «نوو»(14)، وأرى ـ معها ـ العوالمَ التي حُجبتْ عن البشر، أراها في ليلةٍ انكشفَ فيها ـ قدَرًا ـ الغطاءُ الفاصلُ بين السّماءِ والأرض، فيما كان جدّي هناك، من عند آخر الوادي الذي يحفّ «حابي»(15)، وإلى الشوارع الفاصلة بين بيوتِنا ومعبد «آمون»، انتهاءً بالبحيرة المقدّسة في المعبد، يقودها للمستقرّ.

مدينتُنا قُرب الجبّانة، يحوّزها معبد الإله «آمون»(16)، لكنّها مدينةُ بِكر، تحرسها قامات من نخيل دُجّج بالسّعف والصّلابة. إنّها المدينةُ التي عكف أهلُها على خدمة كهنة المعبد، وخدمةِ كِبار الموتى، ودفنهم بما يليق، يسمّونا «عمّال الجبّانة»، لم يكن لنا حظٌّ مثل حظّ «العامّة» الآخرين، لا نشاركهم الاحتفالات ولا الأعياد المُقامة على مدارِ الأعوام، لكن كان لنا حظٌّ في التقرّب من الآلهة أكثر

ممّا أُتيح لهم، حيث نسكن جوارهم وبينهم، نحدّثهم بلا حِجاب، كأنّنا نحدّث أنفسنا، وإذا قدّمنا القرابين، قدّمناها بلا تكلّف ولا بهرجة، كأنّ المرءَ فينا إذا خرج من بيتِه واكتفى أن يبتهل للآلهة، فهكذا يقدّم قربانَه.. كان جدّي يقول: مَن جاور الآلهة استقرّ بآخرتِه.

أطلق علينا «العامّة»: مدينة الأسطورة. أجل؛ فأسطورتُنا كُبرى، أكبرُ أحداثِنا، كالقدر، كالمحتوم، نُدركها، ونؤمن بها إيمانًا راسخًا.

ولأسطورتِنا ما ليس للحكايات الأخرى، العابرة؛ حكايات العامّة، التي لا تصمد كثيرًا أمام سريان الزّمن وجبروتِه، فسرعان ما يهمشها تاريخُهم، ويغربلها، ويلفظها لتنوب عنها حكايات بديلة، تصبح عابرةً أيضًا، وليس لأسطورتِنا الكُبرى أن تُنسَى كمثلِ حكاياتِهم.

بتكليفٍ من الكهنة كان جدّي يعمل صائدًا للأرواح الملعونة، وهو تكليفٌ مقدّس، خصّصوا له قيثارةً،

يخرج في أواخر اللّيل، يستدعي الأرواحَ من شتاتٍ، يُعيدها لحنُه لسيرتِها الأولى، وفَقدها الذي كان، عبر الأزمنة التي خلتْ، كأنّه مرشدٌ لمن ضلّوا.

جدّي قامته طويلة، تُشبه قامة العمالقة الذين قصّت أخبارهم نصوصُنا المقدّسة. عيناه ليس فيهما غير بياض لامِع، لحيته كلحية شجرة عجوز، تنمو ويزداد رمادُها بفِعل الزّمن، وتخشوشن، كأنّه يعيش، يعمُر، في زمنٍ مُسدل عليه، في مكانٍ مُغلق إلّا به، مكان هو جغرافيته وتاريخه وسكّانه، لوحدِه.

من عند آخر الوادي ينطلق صوت القيثارة، يزعق، ينغّم جدّي لحنَه أكثر، فأكثر، ليصبح أشدّ سحرًا وطغيانًا، الصّوت النّاعم يستحضر الأرواح النّافقة، الملعونة، التي تسكن سديمًا بين الأرضِ والسّماء، تتواثب الأرواح من أعلى، في تساقطٍ حلزوني، دخاني، تتدافع نحو جدّي، كأنّه مُمغنط، في ترتيبٍ مُقدّرٍ، وجدّي يسير أمامها كأنّه محمولٌ على ريحٍ، كأنّه قائدها الأزلي، وملاذها.

الشّجر المتفرّق الواقف يحرس البيوت، يلمّ أفرعه إليه، ويضمّ أوراقه فيه، فينكسر بعضُه على بعضٍ، والسّماء تزداد حلكة، واللّيل يبدو بلا قمرٍ، وكما كُلّف جدّي بصيدِ الأرواح، كلّفنا بعدم التلصّص، نُغلق أعيننا عمّا يحدث في الخارج هناك، والأرواح تتراقص نزولًا، وفي الظّلمة يغيب جدّي، ويخفت صوت النغم، في الظّلمة تتساقط الأرواح إلى البحيرة المقدّسة، واحدة بعد أخرى، تتلألأ قبل أن يبتلعها ماء البحيرة، التي تبدأ في الفوران، يتقلّب بطن البحيرة بهم، تلتهم أحشاؤها الأرواح، وفي بطء يتبدّل لون الماء، يحمرّ، يحمرّ بلون الخطايا التي لم تُغتفر، ويتخثّر شيئًا فشيئًا، حتّى إذا ما فار وتقلّب، صار قوامه كالطّين، ولونه على لون فقد الأرواح لغفران الإله «نوو».

أرى الأرواح الملعونة في هذه اللّيلة، كنتُ نائمةً، ثم بدا صوتٌ ينبّهني أن أستيقظ، ثم غابت معالم الصّوت الذي أيقظني من نومي غفلة، غابت كما حلّت، خلال الثّواني الفاصلة بين اليقظة والوسن.

كان الصّوت يهمس: «أيانا».. موعدُكِ.

جلستُ في مكاني فوق الفِراش مصغيةً بكلّ حواسي وبانتباهٍ بليغ، ولكن مع كلّ لحظة أخذتْ تمضي كانت معالم الصّوت تروح وسكون اللّيل يبدّدها، وظلّت حشرات اللّيل البعيدة ـ والتي يترامى صوتها الرتيب مِن وراء ضفّة التّرعة القريبة ـ تصرّ في خفوت.

فيما قليل، رحتُ أستفيق، دسستُ قدميّ في القبقاب وسرتُ بهدوء وحذَر نحو النافذة الواطئة، خشيتُ أن يستيقظ أحد على صوتي فينقطع تربصي بالصّوتِ في الخارج، وهذا حُرّم علينا، أزحتُ بأناملي خوص النّافذة وولجتُ برأسي إلى الهواء، كان صقيع الهواء لاسعًا، وكان المساءُ هذه اللّيلةِ هشًّا، سرعان ما أخذ يتكسّر فوق حواف سور معبد الإله «آمون» العتيد وهو يعرّج إلى مدينتِنا الحجريّة النّاعسة، يخب ويتعثّر، بينما تأخذُ قواه في الوهن أكثر فأكثر كلّما أوغل في التسلّل داخل

حرم المعبد، يفترش على استحياء -كأنّما يستأذن - بهو الأعمدة الضّخمة التي تنصرف نحو السّماء في إجلالٍ وإكبار، تقف في شموخٍ متأصّلٍ وتراقب كلّ البيوت الغافية تحتها في اعتزازٍ وتباهٍ، وفي صلفٍ، كأنّما تقول: هنا في هذا المكان تقوم الحكايات ولا تندثر، تمتدّ بتأثيرها وسطوتها على طول الزّمن، يؤجّجها الإرث ويبقيها غير منسيةٍ ولا مُنقضية.

كان جدّي يخطو داخل المعبد ومن حوله الأرواحُ تلفّه، وقاماتُ الأشجار تبدو مِن خلفه كأعمدة فقارية لهذا اللّيل الدّاجن، والصّوت الذي همس لي فأيقظني، عاد يلح: موعدُكِ «أيانا».

جدّي أسماني «أيانا»، قال لي فيما بعد: رأيتُ السّكينةَ بعينيكِ.

على ترقّبٍ خرجتُ، كنتُ حذرة، والشّغف يسكن حواسي، الذي حرّم على الكِبار قد يأتيه الأطفال، دون عقابٍ، وأنا طفلة لم أزل، سوف أتبع الأرواح، أتبع جدّي، إنّ الأسطورةَ مقدّسة، وحامل الأسطورة

أيضًا، وأيّ حظٍّ أن يكون حاملها جدّي! معبد الإله «آمون» ساكتٌ، إلا من أنين الأرواح، ألج بعدها، أراها وهي تتلوّى مع النّغم الذي بدأ يخفت، كانت الأرواح أشبه بالضّباب، وكنتُ من ورائِها أتبع حلمي القديم، قيل لي مرات ومرات إنّ جدّي مكلّف، لم أفهم معنى التكليف، ولماذا جدّي؟! وقالوا عن الأرواح الملعونة، وكانوا إذا تحدّثوا عن الأمر تحدّثوا سرًّا، كأنّ كاهنًا سوف يسمع حديثهم، الكِبار في مدينتنا يخافون، إنّما هل على الأطفال حرجٌ إن لم يخافوا؟!

المعبد مبلّط بالحجارة، والحجارة غافية، والأعمدة تقف كأنّما إلى أبدٍ، والأرواح تحوم خلف جدّي، وقبل بلوغ البحيرة المقدّسة، أسمع صوت جدّي: تعالي يا «أيانا».

كيف لاحظني؟ لا أعرف! لكنّي اقتربتُ، وكانت حواسي على أشدّها، الوجلُ يحفّ خطواتي بينما أقترب، استدار لي جدّي: هذا قدرُك «أيانا».. كيف لم

تستدلي على الصّوت؟!

أدركتُ أنّه استدعاني كما استدعى الأرواح الملعونة، جلس فجلستُ بجوارِه، كانت السّماء قد راحتْ تكشف عن ضوءٍ شحيحٍ للقمر، رفع جدّي إصبعًا للسّماء يقول: أترين هذه النّجوم؟

أومأتُ برأسي.

ـ إنّها أرواحٌ معلّقة.

قال، وربّت على كتفي، وأضاف:

ـ لعلّكِ لا تعرفين سرّ استدعائكِ! أنتِ العنصر المفقود.

ـ أيّ عنصرٍ يا جدّي؟!

ـ ليكتمل الطّقس.

ولم يضف، كانتْ الأرواح قد بدأتْ تنزلق إلى جوفِ البحيرة، في هدوءٍ وبطءٍ، كأنّها مقيّدةٌ إلى حتفٍ، كمصيرٍ غرائبي، لم يشملني فهمه، نظر جدّي إلى السّماء ثانية:

ـ كلّ روحٍ نافقة نجمة في السّماءِ.

وفيما قليل، كانتْ النّجوم تتساقط من السّماء، تهوي إلى قلبِ البحيرة المقدّسة، حاولتُ الفرار من الفزع، لكنّ جدّي أمسك بي، وأجلسني يطمئنني، وكانت البحيرة قد أخذتْ تضوّي، ومن حولي راحت الأعمدة تشتعل نارًا، وفي لحظةٍ عجائبيةٍ، انشقّت البحيرة عن مركبِ الإله «رع»(17).

مركبُ الشّمس تبزغ في أواخر اللّيل، تخرج من البحيرة، الأشجار تتحرّك، «الجعران» الحجري يتجسّد حيًّا، ويطوّف حول البحيرةِ في طقسٍ لم يُشهَد من قبل، يهمس جدّي:

ـ أنتِ العنصر المفقود.. أنتِ القربان الأخير.

جدّي يطير إلى السّماء، يتحرّر من جسدِه، والسّماء تنزف دمًا، جرحٌ مستطيل يشقّها، وجدّي في الأعلى يرتّق الجرح، في بطءٍ، ثمّ يختفي بداخلِه، وتبتلعه السّماء، لكنّ صوته يردّد: أنتِ

«كا»(18)..

أتمزّق، تتراخى أطرافي، وموج «حابي» يجيء من ناحية الأفق هادرًا ليُغرق قلب المعبد، ويطفئ اشتعال أعمدتِه، فيما كنتُ لم أزل أتمدّد، أتمدّد، وأطراف البحيرة الأربعة تبدأ تكتمل عناصرها، ماء «حابي» على طرفٍ، والتّراب على آخر، وعلى الطّرف الثّالث يتحجّر «الجعران» ثانيةً، أمّا الطّرف الرّابع، فكنتُ.. تحوّلتُ إلى شجرةٍ، سكنتُ طرف البحيرةِ الأخير، لكنّها شجرةٌ ظلّتْ تنبض، بتكليفٍ مقدّس.

---

(14) «نوو»: إله الخواء والمولود من إله الشّمس «رع».

(15) «حابي»: إله النّيل.

(16) «آمون»: إله مقاطعة «واسِت»؛ «طيبة» فيما بعد.

(17) «رع»: إله الشّمس.

(18) «كا»: الرّوح الطّيبة التي تبقى بعد موتِ الجسد.

الآمِن

علي سيد

بخُطواتي الثابتة نفسها أتقدم مجتازًا الباب الملكي بثقة، ولمَ لا وأنا الأقوى الآن؟! لا مجال للتراجع، فالطريق الذي دفعني له القدَر منذ البداية لم يكن لي من الأصل، وإنما كانت الصدفة هي الباب الوحيد للولوج إليه، ولأن الصدفة أصرت على الحدوث فلا مانع لديَّ من المواصلة، ولأن النهاية باتت قريبة فلا شك أن تميمة الحظ تلك التي منحني والدي إياها منذ زمن بعيد قادرة على حمايتي.. إن كامل الفضل في كوني آمِنًا حتى هذه اللحظة يرجع لها.

لأن الملوك دائمًا تدخل متأخرة كما علمتني حبيبتي الأولى.. فالملك زوسر لم يكن قد دخل جناحه بعد.. لعله استيقظ وخرج ليتعبّد كما اعتاد أن يفعل في الفترة الأخيرة.. أو قرر المرور لمتابعة الأعمال الإنشائية التي لا تتوقف منذ تولى العرش.

في كل مرة أدخل إلى هنا يشد بصري النقوش والرسومات التي زينت الحوائط.. أبتسم حين أتذكر إصرار الملك على كتابة اسمه دونًا عمّن سبقوه بلون الدم.. ليس هنا فحسب، بل في البرديات أيضًا..

بداخل زوسر قدر لا يوصف من الغرور.. هذا ما أخبرتني إياه حبيبتي الثانية.. بشكل عام هي ملحوظة غير مهمة ولن تفرق معي في مواجهته.. فمن صنع مجدك يا زوسر قادر على هدمه خلال لحظات، أنظر إلى الساعة الشمسية فأجدنا في منتصف النهار تقريبًا.. يقطع الصمت صخب موكب الملك معلنًا وصوله للقصر.. أستعد لاستقبال زوسر وفي ذهني يقين خفي بنجاحي فيما أسعى إليه.. حكم البلاد.

هل نملك قولًا آخر غير: عاشَ الملك؟

لم أكن أملك حلولًا منذ أن وطئت قدمي هذه الأرض، لكني في هذه اللحظة بالذات أملك حلًّا آخر؛ لذا فلم أنحنِ لزوسر عند دخوله، ولو لم يكن

مغرورًا فعلًا لما ملكت الدهشة تعبيرات وجهه كافة، فقد شعر بشيء مختلف في استقبالي له.. وكان على حق.

جلس زوسر في مكانه وسط حُراسه، باغتني:

ـ لمَ أوقفت العمال عن البناء اليوم؟

ـ لأن اليوم سيكون مُميزًا بشدة.. إنه يوم اعتلائي العرش.

إنها من اللحظات التي يتوقف فيها الزمن ويحل الصمت رغم الصخب المحيط، يعلو صوت تنفس زوسر.. رغم ذلك يحاول التمسك بهدوئه، تتسع ابتسامته ليسأل مجددًا:

ـ هل تُفضل السجن أم الموت؟

في ظروفٍ أخرى لرددت: يا ملكي السجن، لكني لن أقولها، عليك أن توقن يا زوسر أنني لم أتخذ خطوتي هذه إلا وصحبتها بخطةٍ تضمن لي أخذ مكانك بسهولة.

يُشتت زوسر خواطري بإشارة إلى حراسه الذين يقتربون مني.. يكرر سؤاله:

ـ السجن أم الموت؟

أرد بنبرتي نفسها ولا أحاول اصطناع ثقة زائفة أو خوف لحظي:

ـ أتعتقد أني سأخطو تجاه هذا الفعل الأكثر جنونًا دون أن أحسب قدره جيدًا؟! لديك من الذكاء ما يكفي لتعرفني.. قضينا معًا سنوات طوالًا.. مررنا بأزمات.. مجاعات.. حروب كنت فيها رجلك الأمين.

يشير الملك لرجاله بالانصراف في خطوة غير متوقعة.. ينزل من عرشه.. يقترب مني.. يهمس بقرب أذني:

ـ تعالَ ورائي.

أخرج خلفه ليقودنا أحد حراسه الشخصيين إلى غرفة السجلات الملحقة بالقصر.. يخرج حارسه.. يشير لي بالجلوس أمامه.. يسألني:

ـ ماذا تغير؟ حتى الأمس كنت صديقي المخلص.. وحتى هذه اللحظة أنت حارس الأختام.. أعدك أني سأنسى ما تقوله.. فقط قدم لي سببًا مقنعًا.. هل أصابتك لوثة عقلية مفاجئة.. أم ماذا؟

لم أتوقعك هادئًا لهذه الدرجة أيها الملك.. لكن دعني أخبرك أن هذا النوع من الاستعطاف غير مُجدٍ.. لقد فعلت شيئًا مشابهًا في صغري، لكن إخوتي لم يبالوا بتوسلات الأخ الأصغر وباعوني كعبد لأحد التجار الذي باعني لآخر.. حتى دفعتني الصدفة إلى هذه الأرض لأكون خادم قائد جيوشك، وهناك دق قلبي واخترقتْ حاجز النساء للمرة الأولى.. فكانت امرأته جميلة بشدة ويبدو أني رُقت لها.. لذا لم يمر وقت طويل لأصبح وقائد جيوشك نتقاسم نفس المرأة التي بفضلها دخلت قصرك من أوسع أبوابه لأثبت نفسي من خلال التفاني اللامتناهي في العمل.. كنت أهرب إلى العمل كي أحقق ذاتي وإن لم يكن هذا السبب الأول، فالأصل كان الهرب من النوم.. الهرب من تلك الكوابيس

المتجددة التي تتفنن في إزعاجي.. كنت أرى نفسي عاريًا داخل بئر.. أسمع صوت أبي يخبرني: أنت آمِن.. يكمل: الأوقات العصيبة ستمر بسلام طالما بقيت محافظًا على القلادة.. هي تميمة حظك فلا تتخلَّ عنها. وقد استوعبت الدرس جيدًا.. حفظته عن ظهر قلب، بقيت القلادة معلقة في عنقي لتشعرني بقدر لا يوصف من الأمان حين ألمسها.

يُفيقني الملك من خواطري بالسؤال ذاته ثانية.. أرد بهدوء:

ـ سئمت دور الرجل الثاني.. أرغب ببطولة.

يسألني زوسر بعملية واضحة:

ـ ما الذي يجعلك مؤمنًا بنجاح محاولة انقلابك عليَّ؟

أبتسم.. الاستفهام الذي طالما انتظرت لأجيب عليه، وقد جاء الوقت المناسب لذلك.

ـ ضمنت ولاء سيدي القديم.. قائد الجيوش.

ألمح الذهول على وجه الملك.. أستمتع بذلك وأُكمل:

ـ قادم مع رجاله لحصار القصر.

لم أنهِ الجملة حتى بدأت أسمع الجلبة التي أحدثها بيادق القائد.. كما سمعت صهيل جواده المميز.. أختلس نظرة إلى وجه الملك فأجد الذهول تحول لذعر.. أتحرك مُسرعًا خارج غرفة السجلات.. الصخب يشتد.. بدأت معركة غير متكافئة بين قائد الجيش ورجاله أمام الحرس الملكي.. تترامى جثث حراس الملك.. الانقلاب يكاد ينجح.. يراني قائد الجيش.. يقترب مني فأقول:

ـ عمل ممتاز.

يرد بثقة مفرطة:

ـ لم ترَ شيئًا بعد.. ما زال أمامنا الكثير..

يتجاوزني القائد ويدخل ليواجه زوسر.. في تلك اللحظة فقط شعرت أن الأمور خارج سيطرتي..

أعاود الدخول إلى حجرة السجلات.. أجد القائد قد جلس بينما زوسر ما زال يقف حائرًا.. أجلس أنا الآخر.. يشير القائد للملك بالجلوس إلا أنه يأبى الانصياع لأي أمر مهما بدا تافهًا.. يبتسم القائد.. يبدأ في التحدث ليكون وقْع كلامه عليَّ مميتًا:

ـ تمت السيطرة على محاولة الانقلاب يا مولاي..

يُشرق وجه زوسر.. يسأل:

ـ ماذا قُلت؟

يرد القائد ببساطة:

ـ كانت هناك محاولة للانقلاب على الحكم يقودها رجلك المخلص، لكنني استطعت الوقوف أمامها وتصفية المتورطين.

بغضب أقول:

ـ خائن!

بابتسامة باردة يرد القائد:

ـ أنت آخر مَن يتحدث عن الخيانة.. خُنتني ونِمت في فراشي.

يتدخل زوسر متعجبًا:

ـ ماذا قلت؟

يقول القائد بألم:

ـ لقد فعل الأمر نفسه مع زوجتك أيها الملك.. عليك التخلص منها فهي خائنة.. تركتُ لك هذه المهمة مثلما تركت لنفسي مهمة التخلص من زوجتي.

يصل الملك لذروة غضبه:

ـ هل أنت مُتأكد؟

يهز رأسه بالإيجاب.. يتبع هذه الإيماءة بجُملة:

ـ زوجتي مَن اعترفت بالخيانة قبل مدة..

ينظر لي قائد الجيوش ثم يُكمل:

ـ صرحت لي بذلك عندما خُنتها.. مع عشيقتك

الجديدة.. زوجة زوسر.

أصرح:

ـ إنها تكذب..

يتجاهل قائد الجيوش كلامي.. ينظر للملك الذي يشير له بتنفيذ حكم الإعدام.. أثناء الطعنة الأولى أتحسس القلادة التي يبدو أن مفعولها قد نفد.. خلال الطعنات التالية أسمع آخر ما قاله زوسر:

ـ أخبر الجميع بأمر انتحاره.. كرّمه أثناء مراسم الجنازة، لكن بعد ذلك اقضِ على ما استطعت من أثره.

يبدأ السواد في السيطرة على مجال رؤيتي.. كنت أعتقد أن مغامرتي محسوبة بدقة، لكني الآن أيقنت بخطأ حساباتي على غير العادة.. أرى نفسي مُجددًا داخل البئر.. عاريًا تمامًا.. يناديني والدي: أنت آمِن.. أنظر له باستخفاف.. فما أُلت إليه أبعد ما يكون عن أي أمان يقصده.. كنت أحتاج إلى وحي

يمنحني المجال لرؤية اليقين الذي لا مجال لأي أمان إلا به.

«توت عنخ آمون».. نهاية ملك

أحمد ربيع

مصر القديمة ـ القرن الرابع عشر قبل الميلاد

«لا بد أن يموت».

قالها الوزير «آي» بكل حسم في الاجتماع السري والعاجل الذي دعا إليه كهنة آمون.

كانت الدعوة للاجتماع مُفاجئة، مما ينبئ بأن الأمر هذه المرة جلَل. التفوا في دائرة واسعة بردائهم المصنوع من الكتان الأبيض الذي تعلوه رءوسهم الحليقة، حتى بدوا من بعيد كنُسخ متشابهة لأصل واحد.

دارت عيناه الباردتان تتفرسان في وجوههم وتراقبان انفعالاتهم، بعد تلك العبارة الخطيرة التي ألقاها على مسامعهم.

بدت أعمدة المعبد المصممة كزهرات لوتس زاهية الألوان، تراقب هي الأخرى ما يدور وصمت

ثقيل يهبط على البهو الواسع، صمت لم يقطعه سوى حفيف الأشجار التي اهتزت فروعها حين اشتدت بعض الرياح الموسمية بالخارج وكأنها نذير بعواصف مستقبلية عازمة على اقتلاع المكان.

تنحنح أحدهم وتجرأ على السؤال:

ـ لماذا يا سيدي؟ كلنا نُدرك أنه مجرد حاكم صوري، ولا يعدو كونه واجهة لنا نحركها في الخفاء!

صمت «آي» لبُرهة قبل أن يرد بكلمات رصينة:

ـ الفتى الصغير صار شابًّا، لم يعد ذلك الطفل الذي نأخذ القرارات نيابة عنه، كبر «توت» وبدأ في تبني وجهات نظره الخاصة، حتى صار خطرًا حقيقيًّا.

صمت قليلًا ثم واصل:

ـ أتذكرون ما فعلناه منذ عدة سنوات، في بداية صعوده على العرش، حين قضينا على هرطقة أبيه «إخناتون» الداعية لعبادة إله واحد؟

رد أحدهم مُتحمسًا:

ـ أجل، وقررنا إعادة عبادة الإله المبجل «آمون» وأعلنا «طيبة» عاصمة للبلاد، بل وأبدلنا اسمه من «توت عنخ آتون» إلى «توت عنخ آمون».

ـ حسنًا، إن ذلك لم يكن ليحدث لو أنه كان حينها، كالشاب الذي أراه الآن، لقد رأيت في عينيه في آخر مرة تحاورنا، شرارة معارضة لن تنطفئ، شرارة لن تلبث حتى تستعر وتقضي على نفوذنا تمامًا، هل أنتم مستعدون للإقصاء؟

قالها والتفت إلى أول الكهنة عن يمينه والذي صرّح بكل هدوء:

ـ لا بد أن يموت.

نظر «آي» للكاهن الذي يليه ثم الذي يليه حتى وصل إلى آخرهم، لم يقل أحد شيئًا جديدًا، غير أن الجميع كرروا ذات الجملة:

ـ الموت لـ«توت»!

* * *

«ما كان ينبغي أن تحتد عليه إلى هذا الحد».

قالتها «عنخ إسن آمون» إلى زوجها «توت» وهي تنظر إلى عينيه مباشرة، فتأمل ملامحها لبرهة:

- وهل سأظل تابعًا إلى الأبد يا زوجتي العزيزة؟ ألم يحن وقت الاستقلال بالحكم والتخلص من إملاءات الكهنة التي لا تنتهي؟ أنا حاكم هذه البلاد وليسوا هم!

- أجل يا عزيزي.. أنت الحاكم والإله، لكن ذلك الوزير «آي» خطير جدًّا وأنت تدرك ذلك جيدًا، لن تستطيع مجابهة هؤلاء الكهنة وإحباط مُخططاتهم بسهولة، خاصة وهم يسيطرون على عقول الرعية ويتلاعبون بها باسم الآلهة، ولا تنسَ ما فعلوه بأبيك «إخناتون» حين قرر القضاء على نفوذهم.

أطرق «توت» رأسه إلى الأرض يفكر ثم بدأ يتحرك بمعاونة عصاه الخشبية التي يتكئ عليها:

- وماذا عن وزيري الآخر «حور محب»، إلى أي جانب ينتمي؟

تحركت «إسن» بضع خطوات قبل أن تلتفت غير راضية:

- «حور» ينتمي إلى الجانب الأقوى دائمًا، ولا تنسَ أنه تزوج من «موت نجمت» ابنة «آي». صدقني حين يحشدون ضدك الرعية، فسينقضي الأمر وستكون أنت الخاسر الوحيد، وقد رأيت في عينَي «آي» حين كان معك آخر مرة، شرًّا مستطيرًا.

بدا على «توت» أنه استسلم أخيرًا لمنطق زوجته:

- لديكِ الحق فيما تقولين يا «إسن»، لكن الأمور ما زالت تحت سيطرتي ولا تستحق كل هذا القلق، ستؤكد لكِ الأيام أنكِ كنتِ تبالغين.

تنهدت «إسن» وأطلقت زفرة حارة من صدرها:

- ليتكَ تكون مُحقًّا، في الحقيقة.. نحن في غِنى

عن أي خطوب إضافية، يكفيك حالتك الصحية غير المستقرة.

ضمها «توت» إلى صدره وربت على كتفها بكل حنان، ومن خلف ظهرها تطلعت عيناه إلى الأعلى، إلى ما خلف السماوات.

* * *

«كيف سنقضي عليه؟».

تساءل أحد الكهنة بجدية موجهًا سؤاله إلى «آي» الذي ابتسم ببرود وهو يجيب بهدوء:

ـ خلال رحلة صيد!

تبادل الكهنة النظرات ثم عادت نظراتهم لتتلاقى عنده مرة أخرى ليواصل:

ـ حين يخرج إلى صحراء منف على عجلته ذات الحصانين للصيد، سنحرص على أن يجن جنون الخيل، حتى إذا استحالت السيطرة على العربة وفقدَ توازنه، طرح الملك أرضًا وتهشمت عظامه.

هنا تدخَّل أحدهم وطرح سؤالًا أكثر جدية:

ـ وما الخطوة التالية؟

لم يرد «آي» عليه، وإنما وجّه سؤالًا جديدًا للبقية بكل ثقة:

ـ سنستولي على القصر.. مَن ترونه في نظركم جديرًا بالجلوس على العرش؟

سرتْ همهمة خافتة بينهم حتى رد أحدهم بإجابة معروفة سلفًا:

ـ ومَن غيرك أيها الوزير، وحدك الرجل الجدير بالحكم!

ابتسم «آي» ولمعت عيناه وهو يُردد:

ـ فليباركم آمون في الأرض والسماء!

* * *

«ماذا حدث؟».

تساءلت «إسن» بلوعة وارتياع في ذلك اليوم

الذي عاد فيه الملك «توت» من رحلة صيده مُصابًا بإصابة بالغة.

أجاب أحد الحراس:

ـ لقد سقط الملك من فوق عجلته على رمال الصحراء فجأة ولم يعد قادرًا على الحركة.

لم تنطق الملكة بأي كلمة حتى تم وضع «توت» الذي غلبه الإعياء في غرفته، لم تكن هناك ثمة كلمات قادرة على الوصف.

أما حين تفقدت إصابته وعاينت الأضرار الفادحة التي لحقت بساقه اليسرى، غمرها حزن عميق وجرت دموعها كالفيضان.

بعد يومين، لم تحتمل الحالة الصحية لـ«توت» ذلك الكسر الذي خلف جرحًا ملوثًا في موضعه، فتدهورت حالة الملك، ليتم إعلان وفاته وهو في عامه التاسع عشر، ولينفطر قلب «إسن» التي أظلمت الدنيا في عينيها حتى استحالت إلى سواد

قاتم كئيب.

دُفن الملك بعد وفاته بساعتين، وصحب موكب دفنه مراسم وطقوس جنائزية تليق برحلته إلى العالم الآخر وبخروجه إلى النهار.

بعدما استفاقت «إسن» من صدمتها، فكرت.. لا ريب أن الأمور قد استتبت لـ«آي» الآن، لن يُفوت هذه الفرصة السانحة وسيحاول السيطرة على القصر بأي ثمن، أيقنت أنها لم تعد تمتلك رفاهية الحزن أو الانهيار، ولا بد أن تستجمع كامل قواها كي تفسد مُخططه الخبيث.

هنا جاءتها الفكرة، ستبعث برسالة لـ«شوبيلوليوما» ملك الحيثيين تطلب منه فيها أن يرسل بأحد أبنائه ليتزوج منها ويعتلي عرش البلاد، فهذا أهون عليها من أن يحصل كهنة آمون على مرادهم في حكم «كمت».

* * *

دخل أحد الكهنة مُضطربًا على «آي» فأدرك بفراسته أن ملامح وجهه تحمل أخبارًا خطيرة، توقف عما يفعله وسأله بقلق:

ـ ماذا هناك؟

ـ «إسن آمون» أرسلت إلى «شوبيلوليوما» تطلب الزواج من أحد أبنائه.

قطّب «آي» حاجبيه:

ـ هل وصلته الرسالة؟

ـ نعم يا سيدي، وقد وافق على طلبها، وهناك أمير حيثي في طريقه إلى هنا.

ـ الملعونة.. وأين وصل ذلك الأمير؟

ـ وصل إلى التخوم الشرقية.

تأمل «آي» وجوه الكهنة باهتمام ثم أصدر أوامره الواضحة:

ـ انصرفوا الآن واستدعوا «حور محب» على

وجه السرعة، سنتدبر أمر ذلك الحيثي قبل دخوله إلى البلاد.

أومأ الجميع برءوسهم تعبيرًا عن الطاعة وهو يستطرد بملامح شيطان مَريد:

ـ أما تلك الخائنة، فاتركوا أمرها لي.

* * *

«ابعث برجالك للقضاء عليه».

ألقى «آي» العبارة على مسامع «حور» الذي بدا عليه التفكير العميق، بينما تراقص على وجهيهما ضوء المشاعل على الجدران.

قطع «آي» الصمت وتابع بجدية:

ـ تلك الملعونة «إسن» تريد تسليم عرش «كمت» إلى الحيثيين على طبق من ذهب وإخضاعنا جميعًا تحت إمرة هؤلاء الرعاع.

بدا «حور» موافقًا على ما يقول، لكنه عاد وتساءل وهو يحدق مباشرة في عينيه:

ـ وماذا تنوي أن تفعل معها؟

ابتسم «آي» بكل خبث:

ـ سأتزوجها.

فهم «حور» ما يرمي إليه، في حين استطرد «آي» بصوت أعمق:

ـ سأستمد من هذه الزيجة مشروعية تنصيبي على عرش هذه البلاد، لكنها لن تهنأ يومًا ولن تعيشَ كزوجة قط، ستذوق على أيدينا طعم الذل والهوان، ذلك الطعم الذي ظنت أنها ستُذيقنا إياه.

توقفت المحادثة عند هذا الحد، وأصدر «حور» حينها أوامره إلى رجاله بالتحرك إلى الشرق للنيل من الأمير الحيثي والخلاص منه، وتحرك العجوز «آي» ليلتقي بـ«إسن» التي كانت محبوسة في غرفتها الملكية.

* * *

«ماذا تريد أيها الخائن؟».

قالتها «إسن» بشراسة أنثوية حملت قدرًا هائلًا من الكراهية وهي تواجة «آي» الهادئ أمامها، كأنه ينتظر أن تنتهي مما تريد قوله، لتواصل هي بلوعة أكبر:

ـ ألا يكفيك التآمر على الملك وخيانته؟

رد ببرود:

ـ لم أخن أحدًا، أنتِ مَن حاولتِ تسليم هذه البلاد للأعداء.

ـ ألا تدرك أنني أُفضّل الزواج بملك يليق بمكانتي، على أن أدع نفسي لواحد من رعاياي وخدمي؟!

هنا اقترب «آي» منها وأمسك فجأة بشعرها بكل عنف:

ـ عزيزتي الملكة، أرى أنكِ ستتزوجين من أحد وزراء زوجكِ المخلصين، وسيعلن هذا للرعية على الفور، تلك هي إرادة «آمون» الذي تجلى عليّ في المعبد وأمر بهذه الزيجة، الأمر متروك لكِ، إما

الزواج مني وإما الموت جزاء عصيان الإله.

حاولت «إسن» التي كانت تبكي بمرارة أن تحرر شعرها من قبضته لكنها عجزت، إلى أن ألقاها بقوة على أرض الغرفة، التي وقف على بابها حارسان مُسلحان، وخرج.

* * *

في ذلك اليوم من أيام «كمت» المشهودة، عُلقت الزينة في كل مكان، وتجمع العامة ابتهاجًا لهذه المناسبة السعيدة التي سيتزوج فيها الوزير «آي» من الملكة الأرملة «إسن آمون» وسيتم تنصيبه فيها ملكًا على عرش البلاد.

كان الجو مُفعمًا برائحة البخور وبالموسيقى المعزوفة على أوتار القيثارات المتداخلة مع صوت الدفوف والطبول، بينما ارتدت الراقصات تيجانًا من أعواد نبات الغاب وتمايلن بحركات رشيقة تأسر العقول، ثم بدأن في شدو أغنية ساحرة تُمجد الرب آمون:

«آمون أيها العظيم، أيها الأبدي في السماء، أرسل شُعاعك الذهبي ليغمر أرضك بالضياء».

ظهرت «إسن» يومها بكامل زينتها وحُليها، جالسة بجوار «آي» ومُمسكة بزهرة لوتس طيبة الشذا في يديها، أما في أعماقها فكانت تشتعل بنيران عظيمة ثائرة وتمنت.. لو أنها رافقت «توت» في رحلته في العالم الآخر، حيث لا مكان هناك سوى للحقيقة والعدل.

* * *

لقد عاشت الملكة بعد ذلك العرس أيامًا طويلة مليئة بالحزن والمهانة على يد زوجها الجديد وابنته «موت نجمت»، وشعرت كل ليلة بالحسرة تعتصرها على المصير المأساوي الذي لحق بزوجها الراحل.

لم تكن تدرك «إسن» وقتها أن التاريخ لا يرحم الخونة ولا يرفق بهم، وأنه سيبتلع «آي» بين طياته كمَلك عابر لم يقدم شيئًا لـ«كمت» في سنوات حكمه

المعدودة، وأن ملابسات ما جرى، ستظل فيما بعد لغزًا مُحيرًا من ألغاز الزمان الغامضة.

لو كانت أدركت وقتها أن حبيبها «توت» سيرتدي بعد آلاف السنين رداء العظمة والشهرة والمجد، وأن اسمه الخالد سيذيع صيته في كل بقعة على الأرض، لكانت في لحظة الإدراك تلك قد ابتسمت، كشمس ذهبية.. تُشرق على نهر «كمت» العظيم.

* * *

نيفار

رشا فوزي

عندما أخبرتني عن مشاعر الحب المتقدة التي تُكنّها لهذا الأجنبي القادم من أرض البدو الرعاة؛ أبصرت ظلال فاجعة وشيكة تلوح في الأفق.

ثم أيقنت من صدق حدسي عندما أعلمتني عشية أمس بنيتها للفرار معه والزواج منه. كانت ليلة دهماء، سعيت فيها للابتهال للإله تحوت عسى أن يسطع وجهه في تلك الظلمة الغاشمة فيُنير لنا طريق الهدى والخلاص، إلا أن الكلمات توقفت في حلقي تأبى الخروج، فأدركت أن أوان ذلك قد فات.

«نارميس» هي ابنة أخت أم، لكنها لي هي رفيقة طفولة وصِبا، أكبرها بموسمَي فيضان، وعلى الرغم من ذلك كنت أنا مَن يتبعها دائما كظلها.

- هذه الفتاة كالمهر الجامح، كوني لها لجامًا عزيزتي نيفار الحكيمة.

بهذا كان يطالبني الجميع، إنه واجبي المقدس، لقد باركني الإله بحكمته بينما تخلى عنها، أما أنا فلن أفعل.

في مهد الطفولة عندما كنا نمضي في لهونا، تلمع أجسادنا العجاف العارية ببراءتها تحت أشعة الشمس الحانية، إلا جسدها البض قد برزت نتوءاته قبل الأوان متحديًا جميع القوانين في سفور غير مُبالٍ كروحها الطليقة، مُهددًا بفوران قريب كفوران النيل في موسم فيضانه جالبًا أديمه الأحمر؛ مما دفع بأمها ستر جسدها مُبكرًا بالثياب ومنعها عن الخوض معنا، إلا أنها كانت تنجح دائمًا في التملص منها لتأتي إلينا غير آبهة بأي عقاب قد ينزل بها، تَعُبّ في صخب من أصناف لهو الصغار، مُلقية بملابسها في عين الشمس.

لم أكن يومًا مثلها، كنت أجنح إلى العزلة والتأمل، في ساحات اللعب أجلس بتحفظ في الزاوية، أرقبها تملأ الدنيا بضجيجها ومرحها كإوز «الميدوم» عندما

يُطلَق له العنان. في سن مبكرة أدركت اختلافنا عن الآخرين؛ نحن سلالة كهنة رب الأرباب «آمون ـ رع» المعبود، يد الإله في الأرض وكَلِمَته المسموعة، كان علينا دوما التطهّر، الترفّع، والتسامي على تلك المشاعر الدنيوية المنحطة المتاحة لسائر العباد؛ لنستحق حظوة الإله، ونكن أشعته النورانية المرسلة لخلائقه تهديهم سواء السبيل. لكن روح «نارميس» المتمردة الهائجة النهمة في حبها للحياة كانت تأبى دوما الانصياع لأوامر الكهنوت، والالتزام بقوانين المعبد؛ فتلاشت جميع آمال المبجل «بتاري» ـ والدها والكاهن الأكبر ـ في أن تئول لها خدمة الرب كخليفة لأمها المبجلة «تي» كبيرة مُغنيات المعبد، وهو الذي كان يطمح أن تكون يومًا إحدى صاحبات الرب المقدسات؛ لما لها من جمال وافر وذكاء لافت لا تخطئهما العيون والعقول، وقد تضاءلت أحلامه لها حتى اقتصرت على تزويجها من أحد كبار الكهنة ذوي الشأن في أقرب فرصة، في حين كنت أنا بديلها الطبيعي، استقبلت مراسم

تطهُّري استعدادًا للكهانة بجلَد وشجاعة؛ من عملية ختان، حلق شعر رأسي وجسدي، الاغتسال في مياه بحيرة المعبد المقدسة مع نسمات الفجر الباردة يوميًّا، مع المصابرة والتفاني في التدرّب والتعلّم نهلا من العلوم الكهنوتية الشاقة. لقد أثبت جدارة بلا شك.

ـ المُبجلة نيفار هِبة الرب للمعبد.

هكذا كان يتحدث عني الجميع، يتابعون سعيي الدءوب بإجلال وإكبار، وكنت أنا أتابع «نارميس»، أتوقع منها بل أنتظر وأتمنى أن تشاركهم إكبارهم لي، انبهارهم بي، واحترامهم، لكنها لم تكن تهتم! مُلتهية بعالمها البائس العابث المتردي للدونية والوضاعة؛ وضاعة الضعف البشري وضلاله، عالمها الذي تمحور حول ذلك الهمجي القادم من الصحراء، تتحدث عنه وقد تلألأت عيناها كنجوم سماء صافية في ليلة صيفية، وقد توهج مُحياها فصار بلون قرص الشمس ساعة مغيب. يهفو قلبي إليها، يتلوّى

مضطربًا بين أحشائي، حتى وقعت الطامة الكبرى على رأسي كالصاعقة عندما كشفت لي عن نواياها عشية أمس. لم تفلح صلاتي؛ قلبي الناقم الغاضب يدفعني بعنف لأكاشفها حقيقة ما يعتمل بداخله نحوها متحديًا كل الأعراف مُتجاهلا كل المخاوف. غادرت صومعتي وقد تداعت على مذبحها مقاومتي لنفسي الشقية، هرعت إلى بيتها لأجدها تتسلل منه بلهفة مع تسلل خيوط الفجر الفتية إلى كبد السماء المظلم بوحشة، ناديت بأسى:

ـ نارميس؛ لا تذهبي.

التفتت لي جزعة، لكنها هدأت عندما تبينت ملامحي، اقتربت مني بألفة وقد أشرق ثغرها بابتسامة عذبة، واضعة راحة يدها الناعمة الرقيقة على كتفي:

ـ نيفار العزيزة، لكني أحبه.

اشتد وجيب قلبي، واشتعل جسدي بلهيب الرغبة، اندفعت نحوها بشبق جنوني أحتضن

جسدها ضاغطة عليه بقسوة بينما أغمر وجهها بقُبلات مستعرة وأنا أهمس لها بأنفاس لاهثة مضطرمة، ونبرات مرتجفة من شدة الوَلَه:

ـ وأنا أحبك نارميس، أنا أحبك.

دفعتني عنها بقوة وغضب، غير مُصدقة ما بدرَ مني، شعرْت ببرودة تلفحني وقد تسمرت في مكاني شاحبة، صفعتني بنظرة سخرية واستهزاء قبل أن تمضي من أمامي. أجزم أني أبصرتها توشك أن تقول لي شيئًا قبل أن تذهب، لكنها أحجمت عن ذلك في النهاية مُشفقة، وتركتني في هدوء ورحلت.

غموض في مصر القديمة

محمد محمد رجب شحاته

«إياك أن تزلّ قدمُك أيها الواقف هنا.. كن على حذر».

التفت مري رع في ذُعر. كان واقفًا على ضفة النهر، منبسط القدمين من الحفاء.

سألت مُعاتبة: «هل أزعجك صوتي؟».

هتف بصدق كالغناء: «إن سماع صوتك يسكرني، وحياتي كلها في سماعك»؟

منذ صباه بدأ العمل في خدمة الحكيم وني، يحرس نفرت وميرت آمون حفيدتَي مُعلمه.. ميرت آمون أكثر شجاعة وحكمة، لكنها على العكس من نفرت، كانت غائرة العينين، يابسة الساقين، وذراعاها مفتولتان كذَكر، لذلك تجنح إلى تعويض دمامتها بدهن جسدها يوميًّا بالزيوت وتلوين وجهها بالكحل والأصباغ والاستحمام في حوض مملوء

بلبن الماعز. نفرت أصغر بأربع سنوات لكنها آية في الجمال، عشقها مري رع منذ كانت طفلة في السابعة تتعثر في ثوبها الكتاني الناصع، الحفيدة المُدلّلة الرائعة، تشهد بذلك اليوم عيناها الساحرتان ووفرة صدرها وربلتا ساقيها، وهو ليس حقير الأصل؛ فجده كان باسلًا من جنود تحتمس الثالث، يقطع ذَكَر عدوه المقتول ويمينَه ويأتي بهما إلى الكاتب لتسجل في صحيفة أعماله، أما هو فيكتفي بشهود سباقات الجري والرماية، ويصطاد التماسيح لوجه التسلية، يشق النيل في قاربه الصغير ويجدف بقوة حتى يتوسط عرض النهر، ولا يخدعه السكون، بل يقف بصدره العريض ويثقب وجه الماء بعينيه النجلاوين شديدتَي السواد، وفي لحظة يدفع رُمحه بعنف فيمرق إلى قلب التمساح ثم يسحبه بحبال من ليف إلى الشاطئ حيث يبدأ بسلخ صيده، يشق بطنه بسكينه ويُخرج قلبه ليهديه إلى محبوبته.

قال لنفرت هذا اليوم بأسى: لن أهديك قلب تمساح آخر.

- حتى ينتهي الموت.

لم يرصد له أحد بداية، حتى الكهنة العارفون.. لعله بدأ في الثالث عشر من شهر توت، اليوم الذي حكمت الآلهة على كل مَن يولد فيه بالهلاك، لكن نفرت أحصت على الأقل ميتًا واحدًا من كل أسرة تعرفها.. قال المُعلمون إنه الوباء، وقرءوا الرقى والتعاويذ، ونصح الأطباء بتحصين البيوت بالبصل الذي يكرهه الموتى والشهد الذي هو حلو في فم الأحياء ومُر في فم الأموات، ومع ذلك لم تنقطع رحلات أهل طيبة إلى العالم الآخر.. هتف الكهنة: إنه غضب الآلهة سبّبته خطايا البشر. كان صانعو التوابيت يعملون ليلًا ونهارًا، أما الفقراء فدفنوا موتاهم دون توابيت أو ألقوا جُثثهم عند سفح الجبل ليلتهمها الطير والوحوش حتى تساءل الناس: هل يجد أوزير من الوقت ما يكفي لمحاكمة كل هؤلاء الموتى أمام محكمة العدل الأبدية! أما نفرت فخشيتها الكبرى كانت على جدها الحكيم، مع أن

الرجل نفسه لم يبدُ أنه يهتم. قال بمزاح الزاهدين وهو يرى جهودها البائسة تصد الأبواب في وجه الموت: «أي بُنيتي.. تُذكريني بنفسي في العشرين، كنت أعالج الصلع بدهن رأسي بشحم الحيوان.. لانت كفّي من ملمس الدهن ولم تنبت برأسي شعرة واحدة! الخلود قدَر يُكتب على جبين المرء قبل أن يُولد».

توسلت إليه ليكتشف السر الكبير.. ببطء المسنين والحكماء قام الرجل من مرقده الليفي الذي لا يكاد يغادره إلا للعب الداما مع ربيبه مري رع. كان عوده يابسًا مُنحنيًا كبوصة، لحيته رمادية نحيلة ولعينيه شعاع نافذ يستقصي الصدق في أقوال الآخرين. أتى بإناء منحوت من الجرانيت مملوء حتى ثلثيه ماء، ثم صب بحرص من الزيت المقدس حتى حافة الإناء وبدأ بترتيل تعويذته حتى تمثل له وجه الإله حورس على سطح السائل.. كانت نفرت تحترق انتظارًا خارج الحجرة حين خرج الحكيم متعرقًا يهتف بعينين زائغتين: لقد سرق الجعران المقدس.

في غروب ذلك اليوم انتفخ بطن الحكيم وني ثم انفجر بماء أخضر، تخلت عيناه عن صفائهما الثاقب وطلتهما غمامة كالموت، وبقي يحتضر تحت رعاية جزعة من نفرت وميرت آمون حتى هبوط الليل حين انتقلت روحه إلى العالم الآخر. حتى ميرت آمون تخلت عن رصانتها المعهودة واستغرقت مع شقيقتها الصغرى في عناق باكٍ، وجاء المحنطون وثقبوا رأس الحكيم ليفرغوا منها المخ وحشَوها بالأصماغ المعطرة، رفعوا أمعاءه وتركوا القلب في مكانه ثم غسلوا الجسد بالنبيذ وغطوا الجلد بالملح الإلهي المقدس، وتركوه حتى تصفت من جسده آخر قطرة من ماء الدنيا.

* * *

شاع الخبر في المدينة حتى شغل البشر عن موتاهم بالسر الذي صرح به الإله حورس للحكيم وني.. الجعران المقدس واهب الحياة الذي يحفظه الكاهن الأكبر في قدس الأقداس بالمعبد الأكبر للإله

آمون.. أقسم حراس معبد الإله أن بشرًا لم يقترب ظله من الحجرة الحاوية للأسرار، لكن المعبد اتهم الكاهن المرتل سمنخرع فسيق زاحفًا حتى سجد أمام فرعون وأقسم بمجد آمون إنه ليس السارق، وإن يده لم تكن لتمتد بسوء على معبد الإله. برغم ابتهالاته أمر فرعون بحبسه وقطع أسباب الحياة عنه حتى يقر بفعله. رغم الجوع والعطش ظل الراجل صامدًا، ولم تكف مواكب النعوش عن مواصلة الرحيل إلى العالم الغربي. كان الموت يتلون بألف لون ويحل في تجليات غريبة، فالمُصاب ينفجر فمه بالدم أو يرتجف من برد مُبهم، وقد يختنق بصوت يخور مُستغيثًا في حلقه، وربما سقط منقطع الأنفاس دون عرض سابق. بدا أن روحًا شريرة تلبست طيبة فصيرتها عجوزًا يتساقط شعرها وتسلم للموت دون دفاع، وهرع الناس للمعابد ليبتهلوا بالصلوات. قال العامة إن الحكيم مَن يهجر هذه المدينة قبل فنائها، لكن القادمين من إهناسيا وأبيدوس وهور أكدوا أن الموت يتمدد بطول البلاد

وعرضها، وإن الخراب يحدق بوادي النيل. استدعى الفرعون الكاهن الأكبر لاستجوابه، ركع الرجل بكل جلاله تحت قدمَي فرعون وأقسم باكيًا إن الجعران لم يره يومًا أي كاهن واعترف في نوبة صدق أن حيازة المعبد للجعران المقدس كذبة قديمة غرضها السيطرة على أحلام العامة، وفي التاسع من شهر بابة أمر الفرعون بإعدام الكاهن الأكبر. قال كثيرون إن هذا يعني أن مكان الجعران اختفى للأبد إن صح الظن بأن الكاهن الأكبر هو السارق.

في اليوم التالي لإعدام كاهن آمون، شق مري رع النهر بقاربه، استقر القارب في منتصف النهر دون حركة.. سكن الكون تمامًا حتى ألقى الفتى مجدافيه في النهر بعنف ونظر إلى قرص الشمس الأصفر.. في تلك اللحظة انبعث الإله سوبيك من تحت الماء في هيئة تمساح هائل، وفي لمحة واحدة ابتلع القارب وصاحبه وهبط إلى جوف النهر. قال الرائي إنه لم يسمع من مري رع صرخة فزع حين انتقم منه الإله سوبيك جزاء قتله التماسيح.

حلت نفرت ضفائرها تلك الليلة، سارت مهوشة الشعر حتى حاذت ضفة النيل الغارق في صمته كقبر، التفتت إلى المدينة الممعنة في السواد والموت، ركعت على ركبتيها وبكت بحرقة جدها وحبيبها حتى استنفدت كل دموع قلبها.

* * *

استأذنت نفرت في مقابلة كاهن حور سا است. كان الرجل مشهورًا بتتلمذه على أيدي كهنة يقدرون على إعادة الحياة لثور بعد قطع رأسه. كان الوقت فجرًا، وجدران المعبد الجرانيتية تتدثر بالغموض. سلمت القياد لحارس المعبد حتى قابلت الكاهن. كان أبيض الوجه مشربًا بحمرة، بدينًا حليق الرأس على عادة الكهنة.. قالت: «سيدي الكاهن.. رأيت قبل يومين رؤيا».. لم ينبس الكاهن، استطردت بصوت متهدج: «رأيت الكائنات تتناكح على أديم أرض سوداء.. رأيت الأرض تخضر، الأرض تثمر..».

ـ ماذا تريدين؟

ـ تفسير الرؤيا.

ـ ماذا تريدين؟

قالت باكية: «جدي انفجر بطنه.. حبيبي التهمه التمساح.. أريد أن أوقف الموت الزاحف.. أريد لهذا أن يحيا». أشارت إلى بطنها.

«الرؤيا ليست بهذا الغموض». قال وهو يحل إزاره.

* * *

لسبعة أيام رقدت نفرت بين الحياة والموت. في البداية شعرت أن روحًا غريبة تجوس في بدنها. كان الألم في بطنها يتعاظم وجلدها يقشعر ما زال من لمس الكاهن.. تهاوت على فراشها متلفعة بعرق بارد، وفيما يشبه الإغماء المرعب شعرت بالدم المتخثر يسيل على فخذيها.

في اليوم الثامن دخلت إلى مخدع ميرت آمون لترى إن كانت لا تزال حية. كان المخدع خاليًا إلا من

أواني الأصباغ وقوارير الزيوت والمكاحل والأمشاط العاجية والمرايا النحاسية المصقولة المتباينة الأحجام، وتمثال من الديوريت لقرد يضرب على وتر وصندوق لحفظ الحلي فتحته، قلبت على أصابعها حليات من الذهب منها عقود وأساور وحلية أكبر قليلًا في حجم الكف من الذهب الخالص المرصع بالزمرد.. فركته نفرت في يمينها دون انتباه ثم ارتعدت.. كان جعرانًا مُرصعًا بالعقيق والفيروز. لم ترَ جعرانًا بهذه الضخامة من قبل. شعرت بدفء غريب يغزو دمها عند لمس قلب الجعران. انقضى زمن قبل أن تفيق نفرت من ذهولها.. ومن ذهولها وهشاشتها انبثق صفاء نادر كغلالة عبرتها فرأت كل شيء كجدها الحكيم أو خير منه.. رأت مري رع يدفع رمحه في بدن التمساح الضخم.. رأت الحيوان ينفجر دمًا وحبيبها يسحبه حتى الشاطئ.. رأته يفتح بطنه بسكين قصيرة ويُخرج القلب.. رأته يكتشف الحلية الذهبية في جوف التمساح، يقلب الجعران في يده حتى

ينتبه لوجود ميرت آمون فوق رأسه.. رأت عينَي شقيقتها تبرقان: أنت.. أعطني هذه الحلية.. لا يجرؤ مري رع على معارضة حفيدة مُعلمه المهابة.. رأت كفها ترتعش وهي تحوي الجعران الواهب للحياة، ثم تقول آمِرة وعيناها تبرقان بالسخرية: أعطِ القلب لصاحبته.

ـ ماذا تفعلين هنا؟

التفتت نفرت دون ذعر. كانت قد استنفدت كل ذعرها. سألت بذهول: أتعرفين ماهية هذا الحلية؟

لم تنبس ميرت آمون وإن ظلت ترمُقها بغضب.

ـ إنه الجعران المُقدس الواهب للحياة! هتفت نفرت بصوت غريب عن هذه الدنيا.

قالت ميرت آمون بهدوء: منذ زمن بعيد تحاشيت السير بجوارك في سوق المدينة، لم تفهمي وقتها.. الحقيقة أنني كرهت نظرات الإعجاب التي تحظين بها أكثر مما كرهت نظرات الرثاء التي يرمقني بها

الناس.. ربما لن أصير أجمل منك، لكن جلدي لن يتهدل، عودي لن ينحني، لن تعرف عظامي الخور. سأشهد الأيام وهي تُبدلك عجوزًا قبيحة بلا حول.

ـ سأموت قبل ذلك.. أوقفي الموت الدائر! الدور لا تكف عن دفع النعوش إلى العالم الغربي.. الموت لا يكتفي.. أختاه!

ـ الجعران سيهبني الخلود أيتها البلهاء.

ـ إنني لا أرى الخلود على جبينك يا ميرت آمون.

أمسكت بساق تمثال الديوريت وهوتْ به على صفحة وجه أختها.. جمدت ميرت آمون في مكانها لحظة كأنها لم تصدق.. ثم تهاوى جسدها النحيل على الأرض والدم ينبثق من رأسها المهشم.

* * *

على ضفة النهر حيث كان مري رع طفلًا يتقافز على غصون الأشجار، يقطف ثمار الجميز والدوم والتين قبل نضجها، حيث أحبها لأول مرة فوق

فراش ليل مشتعل، وحيث كان يجر بساعدَيْه القويين صرعاه من التماسيح، كانت يدها ترتعد قابضة على الجعران المقدس والنيل يتموج أمام عينيها النديتين.. دفعت قاربها إلى وسط النهر حيث ابتلع الإله سوبيك حبيبها. فكّت نفرت قبضتها في بُطء حتى عانق الجعران وجه الماء. راقبته يغوص حتى ذابت ألوانه، صلت للآلهة أن يبتلعه التمساح الأعظم ويهب الحياة لكل أرض يباركها النيل بجريانه.. من حولها كانت قشعريرة شعاع الشمس المتلألئ تدغدغ صفحة النهر الخالد الذي يبدو أنه لا يبالي بما يجري حوله من أحداث.

دودة الكتب جرابية

الملك الذليل

روان أيمن فكري

جموع هائلة كانت تقف هناك، حيث يقبع هو، أتى في موكبه المهيب، اخترق الصفوف كالبرق وسط مُناصريه، كنت أراقبه من بعيد في حشد قليل من جنودي، ظننته لن يلتفت لي، لكنه خيب ظنوني والتف. يا له من خبيث! لم يلتفت لمَن يتمايلون على أنغام ترانيمه الواهية، بينما أنا أنتظر بفارغ الصبر انتهاء تلك المراسم التي ليس لها قيمة، كي أنطلق لتحقيق ما هو أسمى تواحدي هنا.

فنظرت له خلسة وجدته ينظر لي بحدة، يجذبني إليه وكأن عينيه كالمغناطيس تجذبك رغما عنك لتؤدي له فروض الولاء والطاعة، تقف أمامه كأنك ثمل يكاد أن يهوي على الأرض، أو كأنك سارق يلهث من كثرة الركض ويرتطم بالأرض فيغشى عليه من شدة الخوف، هكذا شعرت حينها.

دنوت منه رغمًا عني، فاقترب لي وهمس بأذني:

أطعني، وإذا أطعتني فسأُسير لك زمام الأمور، فإني رأيت فيك ما لم أره في أحد قط.

كانت كلماته تقع على مسامعي كالصاعقة، استشعر بي الرعب، وظل يحدق بي فقط.

ومن ثَمَّ أمرني بالرحيل فرحلت وكلماته تتردد بأذني.

ولكن كيف أطيعه، وأنا مَلك ملوك الأرضين، كيف أرضخ لقطعة من حجارة، ليست تملك من أمرها شيئًا؟

كيف أكون كأولئك الفاسقين الذين يظنون بأن تلك الحجارة تتحكم بهم، تتحكم بأعمارهم وأعمالهم، وهي التي تهبهم الرزق؟

يتوجب عليَّ أن أوقف تلك المهزلة، لم أُكمل كلماتي إلا ووجدته هناك بالسماء يترقبني من بعيد.

قذف بقلبي الرعب بعينيه المشتعلتين، وصوته الذي رج الأرض رجًّا، فقال لي: «أتكفر برب أرباب

طيبة وتُشكك بقدراتي؟! فأنا مانح الرزق والهبات، أنا مَن منح لك ولأبويك تلك البلاد، ووهبتك القوة والجمال وجسدك المفتون هذا، أنا ربك ورب أبويك، وإن شئت لجعلتك نسيًا مَنسيًّا، واتخذت من بعدك مَن يعظم شأني ويُعلي اسمي، ويطوف البلاد ليجعلني رب أرباب الكون وليس طيبة فقط!».

أجبته بحِدة ممتزجة بسذاجة، ومَن تظن نفسك أنت؟

أتظن نفسك مانحَ القوة والجمال وحُسن الخلق؟

أجابني: نعم، ومَن تظنه قد منحك هذا سواي؟!

أكملت:

وكيف تمنح القوة، وأنت بحاجة إليها؟! فأنت تكلمنا بحجاب، لا تظهر إلا بتلك الأعياد المصطنعة لنهب وسَلْب الأموال؟

وكهنتك الغارقون بنزواتهم وأكاذيبهم، وبطونهم المتدلية على أرجلهم، يضحكون على الضعفاء

بكلمات سطّروها بأنفسهم ويُرددونها على لسانك، فكيف تكون رب أرباب طيبة وأنت بحاجة إلى مَن يكتب عنك، ويتحدث عنك، ويستجدي العطايا من عابديك؟

أجبني!

نظرت هنا وهناك لم أجده فقد اختفى!

دعني أخبرك أمرًا، أنا لست أخشاك ولا أخشى أفعالك، فأنت دون أتباعك وأسحارهم لا شيء.

وفجأة انشقت السماء ونزل منها مخلوق عجيب لم أعرف ما هو!

ولكن مظهره جعلني أثبت مكاني، أخذ في الاقتراب واشتد الضوء حتى التصق بي، شعرت بجسدي يتمزق، ولم أعد أرى شيئًا.

صمت رهيب من حولي، ظلام حالك، أصوات ترانيم تتعالى، ودقات أجراس المعبد تقترب.

سألت نفسي بصوت عالٍ: كيف جئت إلى هنا؟

أجابني صوته وهو يضحك بسخرية، متى شاء الرب أن تأتي.. تأتي رغمًا عنك، والآن أنت سجيني حتى ترضخ وتخضع لإرادتي وإلا جعلتك سجينا للأبد.

صمت كل شيء مُجددًا، وظهر ضوء خافت في ذاك القبو العفن، تحسست المكان، فلمست يداي جسد أحدهم، فسمعت أنّاته الصامتة، حاولت الابتعاد لكنه أمسك بي، وقال:

«ارضخ حتى لا يصيبك ما يصيبني، لقد كنت مثلك لا أومن بقوته، لكنه جبار، فعل بي ما لم يجول ببال أحد، جعلني عِبرة لمَن لا يعتبر، أذهبَ مُلكي ومالي وجمالي في جلسة واحدة. أنا هنا منذ أعوام، أُكفّر عن ذنوبي بشتى الطرق ليُعيدني للحياة. ارضخ واقتصر الطريق يا بني».

غرقت بتفكيري، أتأمل كلماته، حتى دخل قلبي وعقلي في صراع، قلبي يرفض الرضوخ، وعقلي رضخ خوفًا ورعبًا على عرش مملكتي.

كيف سيكون الحال من بعدي؟

مَن سيحافظ على حكم مملكتي؟

وبينما أنا في حيرة من أمري، انشقَّ سقف الغرفة وتطاير كل شيء من حولي، حتى أنا أصبحت أطير بالهواء، كدت أن أهوي ولكن شيئًا ما التف حول عنقي، وتكبلت يداي وقدماي.

ظهر مُجددًا في الأنحاء، لكنه لم يكن كذلك من قبل، فكان في حالة مُدمجة ما بين الواقع والخيال، يرتدي زِيه الحربي: عريض المنكبين، وسيم الوجه، بشوش، باسم الثغر، يبلغ طوله إحدى عشرة قدمًا، هبط على الأرض وكأنه حيوان أسطوري بهيئة بشرية، استقرت قدماه على الأرض فكادت تنفلق من قوته، نظرت إليه فوجدت رأسه عند السماء وقدميه ثابتتين على الأرض.

خُيل لي لو أنه فرد إحدى يديه لغطت نصف العالم.

سألني مُجددًا أن أُقدم له فروض الولاء والطاعة.

لكن جوابي كان لا. وكلما رفضت يستشيط غضبًا، كرّرها مرارًا وتكرارًا، وفي المرة الأخيرة التقطني، كأنه يلتقط صخرة صغيرة.. وألقاني على الأرض بكل ما أوتي من قوة.

أقسم لكم كنت في طيبة، ووصلت إلى أقصى أقاصي البلاد.

وفي تلك الأثناء تجمّعت حشود الجنود والكهنة والمواطنين، يُرددون: ارضخْ وإلا سيضيع الملك، ارضخ وإلا ستترك البلاد في محنتها.

ـ ارضخ!

ـ كيف؟ ولمَن أرضخ؟

ـ ترضخ لي أنا.

ـ لا، لن أرضخ لك!

ـ كلا، سترضخ وإلا سأجعلك تتمنى الموت ألف مرة.

ـ استمع إليَّ وأنصت، لو أطعتني لوهبتك مملكة حدودها شرق وغرب العالم، وجعلت منك إلهًا بجانبي، يعبدونك، ويأتونك من شتى بقاع الأرض، ووهبتك مالًا وعلمًا، وجعلت كلمتك هي الأولى والأخيرة، ووهبتك من صفاتي وقوتي، لتصبح أنت رب الأرباب، مُعطي الهِبات، حاكم طيبة وآشور، وبلاد فارس، حامي الأراضي، الفارس المغوار، ابن الإله.

هيا، انظر معي، فهذا مستقبلك الذي ينتظرك لو اتبعتني، انظر، تلك مملكتك.

نظرت فوجدت نفسي أجلس على عرشي، أتوّج كحاكم لشتى بقاع الأرض، يقدمون لي فروض الولاء والطاعة، وينعتونني بالفارس المغوار، ابن الإله صاحب العظمة والجلال، وقصري الصغير تحول لقصر حدوده اتجاهات العالم الأربعة، أرتدي قلادة مُرصعة بجم من أنواع الأحجار الكريمة، ونُقش عليها اسم [رب أرباب طيبة].

وسرعان ما اختفى كل هذا وعاد الوضع كما كان في السابق، وجلست على ركبتي أنعي حالي، وأبكي على مُلكي الضائع، آمالي المتبعثرة على ضفاف الانتظار.

ووجدت نفسي حيث كنت في البداية، بمعبد الإله آمون أقف أتأمله كباقي الحاضرين.

فردّدت بصوت سمعه كل الحاضرين: «أؤمن برب أربابكم، ورب آبائي وأجدادي، عظيم الشأن، رفيع المكان؛ إلهي آمون». فخررت له ساجدًا أبكي بتضرع بين يديه، أطلب منه السماح والمغفرة، وفي حينها أرسل لي عطية من عطاياه.. ثوبًا منسوجًا من خيوط الشمس، وقلادة حُفر عليها: «إله ابن إله».

ارتديت الثوب والقلادة، وما هي إلا خطوة واحدة تجاه المَخْرَج حتى وجدته أمامي.

يبتسم في لذة انتصار، ويضحك لي ساخرًا.

وقال لي: هأنتذا خررت بين يدَيَّ ساجدًا.. بكامل

هيئتك كحاكم مصر العُليا والسفلى.. فلا تظن بأنك قادر على مُجابهتي؛ فأنت زائل وأنا باقٍ.

ثم اختفى وبقيت كلماته عالقة بذهني حتى اليوم.

فأنا هو ذاك الملك الذليل الذي خضع لحجارة ليحتمي بها، سيذكرني التاريخ بكوني تابعَ آمون، وملك ملوك مصر بفضله، أنا المُكبل بأصدافه وليس لي منه خلاص.

دماءٌ وضحك

أحمد الروبي

١

لم يكُن بِس يعلم أن مُزحةً أراد مِن ورائها أن يمرح قليلًا قد تُسبب وقوع مصيبة مثل هذه!

فكّر كثيرًا. وازنَ كلَّ الاحتمالات والسُّبل. لم يشأ أن يلجأ إلى آمون.

لكن انفلات الأمور من بين يديه، والمصيبة التي على وشك الوقوع؛ كل هذا لم يترك أمامه خيارًا آخر.

استأذن بس ـ إله المرح والسعادة ـ الحراسَ بأن يسمحوا له بمقابلة كبير الآلهة.

وقف أمامهم الإله القزم بوجهه القبيح وملامحه الغليظة.. كان جفناه السفليان يرتجفان.

تأمله الحراس في حيرة. ما السر وراء هذا العبوس في وجه إله المرح. أليس هذا عجيبًا وباعثًا

على الاستغراب؟

خرج أحدهم من الصف، وفتح الباب المرمري الضخم. سجد أمام الإله آمون وقال:

ـ يطمع الإله بِس في مقابلة إلهي العظيم.

تمطَّى آمون، وانفرجت أساريره. كان يشعر بالملل. ولا بد وأن حضور بِس سيكون مصحوبًا بكثير من البهجة.

دلف بِس وأغلق الباب من ورائه. النور المنبعث من جسد آمون خطف بصره. أطبق عينين أبهرهما النور.

لآمون حضورٌ يفوق كل حضور. فُتحت العينان، واستقر جسد بِس في وضع السجود. رفع وجهه ناحية كبير الآلهة الذي كان يمضغ حبّة تينٍ وينظر إلى بِس نظرة يعرفها الأخير جيدًا: «أفرغ عليَّ كل ما لديك من مرح».

كاد بِس يبتسم في مرارة، لولا أن هول الموقف لا

يسمح. انكسر بصره وهو ينطق كلماته بصوتٍ يخالطه بكاء: «لقد تسببت في حدوث كارثة!».

استمع آمون إلى الحكاية، وأطلّ من سمائه وتطلّع إلى جموع البشر من تحته.

٢

على الأرض تلوّث الهواء برائحة الرعب.. وكل شيء يُغلفه الخوف والترقب.

وقف الجنود أمام الرجال المُعلقين على صُلبان خشبية. آلات التقطيع في أياديهم، والحيرة في قلوبهم.

لم يدرِ أحدٌ ما يحدث. لا الصالِبون ولا المصلوبون. كلا الطرفين كان يجهل تمامًا لِمَ كان على هؤلاء أن يلاقوا المصير الذي يلاقيه المتمردون والخونة.

المسافة بين الصليب والآخر عدة أقدام. والرجال المُعلقون لم يجدوا بُدًّا من أن يواسي بعضهم بعضًا

في انتظار ما سوف يكون.

ينظر الواحد منهم إلى الآخر ويسأله: ما جريمتك؟

فيقول الآخر: لا جريمة لي.

يبدو على كليهما الجهل أكثر مما يبدو عليهما البراءة.

سبعمائة وثلاثة وستون رجلًا مُعلقون على صلبان خشبية، دُقّت المسامير في أكفّهم، ورُبطت الحبال حول أوساطهم.

ورفع أحدهم رأسه إلى السماء وقال: لو أنني فقط أعرف السبب!

وارتفع صراخ الألم من حنجرة عجوز ضرير وشقّ الفضاء؛ إذ انكفأ رأسه على صدره من الإرهاق والعطش، وكي يتأكد الجندي من أن المصلوب لا يزال حيًّا ضربه بآلة معدنية على قدمه.

أمسك أحد الجنود لسانه قبل أن يسأل زميله

الواقف عن يمينه عن الجرم الذي ارتكبه المصلوبون. تردد بداخله صدى الحكمة التي كثيرًا ما يرددها القائد على مسامعهم: «الجندي الحق يُنفذ الأوامر ولا يطرح الأسئلة».

ويسأل مصلوبٌ زميله عن اليمين عن اسمه فقال: ثمودي.

فارتفع حاجبا السائل في دهشة: «أنا أيضًا اسمي ثمودي!».

لم يلتقط الرجل الأمر على أنه صدفة. التفتَ إلى المصلوب إلى جواره وسأله عن اسمه.

كان الأمر عجيبًا. كلّهم لهم الاسم ذاته!

«ثمودي»؛ وهو الشخص المُحب للضحك والمرح.

٣

حكّ آمون ذقنه في حيرة.

تأمل في ظلمة الليل المشهد الجاري من تحته. من ورائه جاء صوتُ بِس ضعيفًا ومبحوحًا.

«أقسم لك إنني لم أشأ إلا مرحًا».

أشار آمون لأسفل، ناحية الرجال المصلوبين، وردّ بصوتٍ خافت، وكأنما يخاطب نفسه: «وهذا هو نتاج مرحك».

ضمّ الإله القزم كفّيه أمام خصره. نظر إلى آمون في رجاء. كان يرجوه أن يفعل شيئًا يُنقذ به الموقف أكثر من رجائه في نيل العفو. قال:

«حين زُرت فرعون في منامه، وتشكّلت له في هيئة ساحرة عجوز تُلقي ببخورها في كوة النار وهي تخبره بأنه سيلقى حتفه على يد مُحبي المرح، لم أكن أقصد بهذا إلا التلاعب بفرعون نفسه. كنت أهزأ به. أتسلى بإخافته. لم أكن أعلم أبدًا بأن الأمور ستئول إلى هذا الحد.. وحين اجتمع بوزيره وكهنته وعرّافيه، وقص عليهم ما رآه في منامه، انقلبت وجوههم جميعًا ونظروا إلى بعضهم البعض في وجوم. أسعدني هذا كثيرًا، ملأني بالنشوة. ظننت بهذا أن المزحة قد انتهت. لكن الأغبياء فسّروا الأمر

أن رجلًا اسمه ثمودي سوف ينجح في قتل فرعون. فأمروا جنودهم ورجالهم في كل الأقطار بجمع كل مَن اسمه ثمودي، ولأن المنام لم يُحدد تاريخًا معينًا لحدوث محاولة القتل، فقد قبضوا على كل حاملي الاسم، سواء كانوا أطفالًا.. شبابًا أو شيوخًا. في الصباح، سوفَ يقوم الجنود بتقطيع أجساد هؤلاء المصلوبين الذين لم يرتكبوا جرمًا. سوفَ يتم هذا في محاكمة علنية يشهدها الآلاف. فرعون نفسه قال إنه سوف يحضر المحاكمة. أترجّاك أن تفعل شيئًا».

لم يرفع آمون عينيه عن المشهد.

جنودٌ ومصلوبون، وآلاف البشر سوف يشهدون إعدامًا لمئات الأطفال والعجائز والشباب، لجميعهم الاسم نفسه، ولا يدري أحد السبب الذي سوف يُعدمون من أجله!

سوف ينقضي الليل ويحل الصباح، ومعه تحل المذبحة.

في الصبح سوف تسيل على الأرض دماء. سوف تُقطع لحوم.

«أترجاك أن تفعل شيئًا». قال بِس، وتردد قوله في عقل آمون، وطاف مُزاحمًا مئات الأفكار.

قال، بالنبرة الخافتة إياها: «وماذا لو أنني لم أفعل شيئًا؟».

مِن جديد، دارت في عقله مئات الأفكار والتصورات: قد يموت المصلوبون الأبرياء، وقد يعود فرعون إلى رشده ويُحجم عن قتلهم، قد يثور المُتفرجون رافضين ما يحدث.

إن تدخلَ آمون، فكّر، سوف تُنقذ هذه الأرواح. لكنه سوف يُحرم من الفرجة على ملحمة تحمل كل هذا الكم من الاحتمالات والمشاعر.

تحرّك قلب آمون يمينًا وشمالًا، وتأرجح عقله بين خيارين: إما أن يتدخل وإما أن يتفرج.

استدار ونظر طويلًا إلى بِس الغارق في الصمت.

عاد ببصره إلى أسفل.

الملل بداخله كان قد تبدد تمامًا!

قيامة أوزوريس

رَوان بغداد

«صراع الخير والشر كأمطار الشتاء.. لن تتوقف إلى نهاية الكون.. شمعة الحب التي أشعلت فتيلًا لقنبلة موقوتة.. تنتظر وقتها المناسب.. انتظرت حتى تبلورت في هيئة مَلك عظيم.. لم ولن يأتي مثله أبدًا.. وُلِد ليكون ملكًا.. وكُتب له أن يكون بطلًا.. سُطرَ على أولى صفحات حياته عنوان «سيكبر لينتقم»».

* * *

نسائم باردة تصاحبها أمطار قليلة.. ومياه النيل الساكنة بطبعها تأبى الصمت. كان يعلم أن النهاية تقترب.. وأن موعد عودته قد جاء. لكن قلبه عُلق بفعل العشق.. رغم كل شيء.

خطواته الهادئة في ردهة هذا المعبد العتيق.. مُزجت بالخوف والاختناق. كلما اقترب من قُدس الأقداس.. يزداد الضيق. لحظة وصوله هي نقطة

العودة إلى اللا عودة.. دخل وهو يعلم بوجودها مُسبقًا.

غرفة صغيرة.. ذات حوائط رخامية مثقولة ومزخرفة بالذهب.. تسرد قصة إله عظيم.. يتخللها ضوء القمر كأنه مصباح يعرف مكانه.

تقدم ببُطء وجلس على كرسيه الذهبي.. لامس بأنامله اسمَه المحفور على عصاه الذهبية.. رموز تحمل السحر..

تعني «توت عنخ آمون». نظر إلى هذا الاسم.. ثم قال: - هل سأظل دائمًا «توت عنخ آمون».. أم سأعود حورس كما وُلد؟

ـ كل شيء يعود لسابق عهده يا بُني ـ قالت هي.

لم تُجاور الشمس قمرها إلا في المعجزات. إنها كالشمس المُشرقة.. يسكنها الصباح.. تاجها هو العشق.. وقلبها يعني الخير. عيناها تحملان من التضحية انتصارات.. يداها تزينهما جروح الحروب.

تسحرك بجمالها وليل شعرها.. حق أوزوريس أن يقع ضحية للشر. ليعرف طعم هذا العشق.. إنها إيزيس.

التفت إليها ثم قال:

ـ أمي!

ـ جاء موعد الانتصار يا بُني.. لتُعيد لنا الحياة.

ـ سأفي بعهدي معكِ ومع والدي.. لكنني سأخلف وعدي مع العشق.

تقدم خطوات حتى وصل لصورته المنقوشة معها.. يمسك بيديها وهما في حالة شموخ. ـ لقد عشقت الحياة يا أمي.. تذوقت طعم العشق الذي حاربتِ من أجله الكون.. العشق الذي لأجله وُلدت أنا.. كيف لي أن أترك كل هذا؟ كيف لي أن أحطم قلب مَن أُحب؟

ـ العشق حرب يا بُني.. وأنت لديك حربك الأبدية.. لن تستطيع أن تخوض أُخرى.

ـ ولن أستطيع أن أتخلى عنها.. وأخذل قلبها.

ـ أنت لن تكون أوزوريس يا حورس.. ولن تكون بنت إخناتون إيزيس!

نظر إليها وهو يمسك بعصاه الملكية: - أنا «توت عنخ آمون»؛ صورة الإله آمون.. أنا حورس الذهبي.

ثم ركع على ركبتيه أمامها.. تتغلغل الدموع عينَيه.

ـ أنا عاشق يا إلهة الخير.. يا إيزيس.. يا أمي.

صعدت إيزيس درجات السلالم.. وجلست على الكرسي الذهبي.. لم تستطع كَتْم زفيرها أكثر, لم تكن تريد أن يتذوق ابنها ما حاربت هي من أجله.

ـ أعلم ما يُفجره بركان قلبك.. لقد تفجر بداخلي من قبل. عندما قُتلَ «سِت» ـ إله الشر عند المصريين القدماء ـ أباك.. كنت أشعر أنني مَن مُزِّق إلى أشلاء.. شعرت أنني أصبحت وحدي.. احتلت عقلي أفكار قاتلة.. تطعنني واحدة تلو الأخرى...

قاطعها:

ـ أنا مَن يُمزَّق إلى أشلاء يا أمي.

ـ أنت حورس بن أوزوريس ـ إله الخير لدى المصريين القدماء ـ الذي خُلق ليكون بطلًا.. شُجاعًا.. يحمل بقلبه الخير والنور.. كان يحارب أبوك «سِت».. وحده.. يدافع عن الكون من دون خوف.. كنت أتمنى أن يقتلني «سِت» مكانه.. أن يمزقني ويفرقني ويتركه.. لم أكن أعلم أنني سأخوض معاركَ نتيجتها هزوبك.

ـ أنا لا أهرب.

ـ بلى.. لقد أصبح أبوك ملِكًا لمملكة الموتى.. حُرمت منه طوال سنين وسنين لأحميك.. لأجعلك ملكًا منذ نعومة أظافرك.. لتنمو على الشجاعة والفطنة.. لتكون مُحاربًا.. لتحارب «سِت».. لتنتصر وتنتقم لأبيك.. والآن ماذا؟ لا تريد من أجل العشق؟!

ضوء يخطف الأبصار.. تسللت أسلحة البرق.. لتعلن عن بدء المعركة. أمطار لم ترها أرضُ الكنانة من قبل.. استعدت طبول الرعد.. لتهيئة ساحة

القتال. ـ تخلص من روح آمون يا بُني.. أنت حورس.. حورس الذهبي ابن الإله أوزوريس وإيزيس.

ترك عصاه الذهبية.. تستند إلى صورته معها. أخذ خطواته لبهو الأعمدة حيث صراع دامَ لسنوات.. كل خطوة تعني الذهاب للعدم.. تعني التجرد من روحك والحصول على الخلود.

* * *

استحوذ البرق عينيه.. وتحولت ابتسامته الشرسة.. إلى ابتسامة ساخطة.. قوته تكمن في ضعف ثقة الخصم بنفسه.. بأن يُذكره أنه كمياه المطر.. ضعيفة رغم كثرتها. جسمه المنتصب.. وعضلاته المنحوتة.. جعلته خصمًا لن يستهين به «حورس» أبدًا.

اقترب القمر من «حورس».. تحول في يديه إلى كتلة ثلج.. تفرغ الهواء من حوله.. واستسلم للهدوء.

أحس «سِت» أنه سيقضي عليه من البداية. وقبل

أن تُعلن طبولُ السماء بدايةَ المعركة.. أرسل «سِت» ضربةَ برقٍ سكنتْ قدمَ «حورس».. أفقدته السيطرة فسقط. وهذا ما أراده «سِت».. أن يشعر «حورس» بضعفه من البداية. لكنه لم يعلم أن مَن يعشق يُقاتل حتى الزفير الأخير.

استجمع «حورس» قوته.. رغم آلامه.. رجع إليه مُنتصبًا بشموخ الملوك. ابتسم ابتسامة هادئة.. أفقدت «سِت» السيطرة. وجّه له ضربة.. فأخرى.. حتى أفقده توازنه وسقط أرضًا بقوة.. حتى تنافرت مياه الأمطار التي كان يلعنها.

نظر إليه وعيناه ملؤها الهزيمة الماكرة.

ـ عيناكَ قويتان مثل أبيك!

أحس «حورس» بالانتصار.. لم يكن الأمر بهذه الصعوبة التي توقعها. لكن الخيانة لا تُتوقع.. لم يشعر «حورس» إلا بصاعقة تستهدف دماغه من الخلف.

امتص «سِت» عبق الليل.. حتى النجوم كادت أن تتفتت من ضحكته الساخطة.. تحدَّث بصوته الأجش الساخر.

- أتظن أنك ستنتصر؟! كاد أبوك أن يفعلها يومًا.. لكنه لم يستطع.. أتعلم لماذا؟ لأنه لم يؤمن بوجودي يومًا.. برغم أنني أؤمن به.. أتعلم لمَ؟

لم يعطِ له «حورس» اهتمامًا. اقترب منه «سِت» قليلا.. حتى لامست عصاه قدمَ «حورس» المُلقى على الأرض من شدة الصدمة.. ثم أكمل:

- لأنني أؤمن بوجود الخير الضعيف.. مغلول اليدين. ذاك الخير الذي يرتديه العبيد ليمحو عار الاستسلام للشر. لكنهم في النهاية يستسلمون لي!

- وجودك لن يدوم.

قالها حورس وهو يحاول أن يستجمع قُواه وينهض.

- عندما حاربني أوزوريس.. كان يظن أنني

سأنتهي بسهولة.. استهان بي.. لكنني أعطيت له درسًا لن ينساه.. وزَّعت جسده على مملكتي.. مزَّقته على كل مدينة.. ليعلم أن خيره الهزيل هذا لن يفيده أبدًا.

اكتمل توهج «حورس».. أمسك بعصاه الحاملة لاسم آمون.. وأردف:

ـ لكنك لم تتخلص منه.. فأنا أمامك الآن!

ـ لن تتمكن من هزيمتي يا حورس الذهبي.

غازل «حورس» السماء فتطايرت نغماتُ البرق حول أنامله.. غازلها بمهارة عازفًا على عصا آمون.. حتى أصبحت بتوهُّج الشمس.. قذفها باتجاه صدره مُباشرة.

اصطدمت به كتلةُ البرق.. لكنه قاومها.. امتصها جسدُه كأنها كتلة من الصخور. أعاد «سِت» توجيه ضربته المضادة لـ«حورس». حينها سمع صوت أمه- إيزيس- تقول:

ـ لا يُقاتَل الظلام بالبرق يا بُني.. وإنما يُسحق بنور الشمس.. وأنت صورة آمون..

دائمًا يكون الانتصار بين أيدينا.. لكن دائمًا ما يرى المرء ما هو أبعد.

ـ باسم الإله «رع».. يستعين بك آمون لتساعده.

تسارعت نغماتُ الطبول من اهتزازات الرياح.. عاصفة قوية.. تدور كراقصة الفلامنكو.. يتغللها ضوء الشمس بلا تمهيد.. تعرف الأشعة طريقها وهي عصا حورس. صوَّب «حورس» العصا نحو «سِت» ثم قال:

ـ الآن سيعود والدي إلى عالمنا.. سيُصبح ملكًا مرة أخرى.. أما أنت، فستُحاكَم في عالم الموتى.. وسيظل الخيرُ ينتصر دائمًا.

* * *

سكن جسد الملك «توت عنخ آمون» في قُدس الأقداس.. يحمل آثار معركته مع «سِت». كان لا بد

أن يذكر جسدَي هذه الحرب الأبدية.. الذي انتصر فيها «حورس الذهبي» وانتقل «سِت» إلى عالم الموتى.. واستطاعت «إيزيس» أن تجتمع بقلبها الذي حُرمت منه سنينًا. لم يكن «أوزوريس» رمزًا للخير فقط.. فإنه رمز.. للحُب.. للتضحية.. للشجاعة...